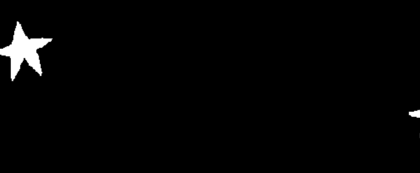
الكلمات الأخيرة

السيد ابو ضيف المدنى



دار الشروق

الكلمات الأخيرة

الطبعـــة الأولى

١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

© دار الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE

السيد ابو ضيف المدني

الكلمات الأخيرة

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

صدق الله العظيم

مقـــدمـة

الموت حقيقة كونية لا مهرب منها ، وأمر واقع لاشك فيه ، ومحاولة تجاهله أو نسيانه أو كراهية الحديث عنه خدعة من أخاديع النفس ، ورفض لواقع مشاهد .

وهو النذير الإلهي الذى يتكرر فى كل يوم وفى كل ساعة وفى كل لحظة ، ولا نزال منه فى غفلة وجهل وغرور حتى يدهمنا بغتة فى اللحظة التى يقررها الله ، والإنسان يموت فى أى عمر ، وفى أى زمن ، يموت الصغير والكبير ، والعظيم والحقير ، والمريض والسليم ، والغنى والفقير ، والعالم والجاهل ، والكل أمام الموت سواء .

والعجيب أننا نسلم بكل هذه الحقائق تسليماً تاماً ، ولكنه يصعب على الفرد منا أن يفكر أنه سيموت فى أية لحظة ، ونغالط أنفسنا ، ونمدّ حبال الأمل ، ولا نفكر فيه إلا لساعات أو لحظات حينما نفقد صاحباً أو عزيزاً ، ثم تمرّ المناسبة ، ونعود إلى حياتنا العادية ، وكأن شيئا لم يحدث ، وفى هذا رحمة من الله ، وله فى ذلك حكمة ، فالحياة لا تتوقف لموت أحد ، وسعى الناس لمواصلة الحياة دائم لا ينقطع .

وإذا كانت الدنيا الكذوب تغرينا وتلهينا ، وإذا كنا سنبلغ النهاية

يوما ما حينما يبلغ الكتاب أجله ، وإذا كان الموت يقف لنا بالمرصاد فى كل لحظة ، فإن من إخفاء الرءوس فى الرمال ألا نتحدث عنه ، وألا نذكر به ، وأن نزورَّ عن ذلك كل الازورار !

على أن الحديث عن الموت ، أو بعبارة أدق التفكير العميق فى هذه الحقيقة يضفى على الحياة نظرة روحية سامية ، تزيدها عمقاً وثراءً ، وتمسح ما على وجهها من مظاهر الدمامة والقبح !

ولو فكرنا فى الموت لنهنها من شهواتنا ، وخففنا من جموحاتنا ، وارتضينا بالطيبات من الرزق ، وسمَوْنا على ماديات الحياة !

ولو فكرنا فى الموت لخلصنا أنفسنا من أدواء الشره والطمع والحرص والبخل ، وأدواء الكبر والتعالى والغرور ، والحقد والحسد وقساوة القلب !

ولكن الإنسان لا يوقن بالموت إلا حين يدهمه الموت ، ولا تنزاح عن عينيه غشاوة الغفلة والغرور إلا ساعة ينتهى الأجل ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » حينئذ تتكشف له حقيقة الوهم الذى عاش فيه ، وتتوارد على ذهنه فى ومضات خاطفة صور حياته التى عاشها على الأرض ، وربما وقف عند صورة أو موقف فعبَّر عنه بجملة أو عبارة تلابس حاله ، وتفصح عن هواجسه ومشاعره .

فى هذه اللحظة الرهيبة ، لحظة مفارقة الحياة يصدق الإنسان مع

نفسه ، فموقف مواجهة الموت يختلف عن موقفه أثناء الحياة ، كما يتفاوت موقف الإنسان فى حال الفقر عنه فى حال الغنى ، وفى حال الصحة والسلامة عنه فى حال المرض والعطب ، وفى حال الخمول والضعة عن حال العزة والجاه والسلطان .

لهذا يتطلع الناس إلى معرفة مايتفوَّه به العظماء والموهوبون عند الموت ، فقادة الحرب ، وزعماء السياسة ، والنابغون فى كل علم أو فن يفضفضون فى ساعة الإحتضار عما أهمهم فى حياتهم .

وهذا ما دأب رجال الغرب على إبرازه والحديث عنه فى صحفهم ومجلاتهم وكتبهم ، فيصفون اللحظات الأخيرة ، ويسجلون الكلمات الأخيرة التى فاه بها هذا الزعيم أو هذا الشاعر أو الأديب .

وقد تعلق نظرى فى هذا البحث بطائفة من رجال الإسلام ، فى مقدمتهم نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفاؤه الراشدون .

أردت أن أعرف كيف واجهوا الموت؟ وماذا قالوا ساعة الاحتضار ؟ وفى معرفة ذلك من العبر والدلالات ما لا يخفى على قارئ أريب .

والموضوع ليس بجديد ، ولا هو من ابتكار كتاب الغرب ، فقد سبقهم إلى هذا علماؤنا منذ قرون عديدة ، مع الفارق بين نظرتنا ونظرتهم وحضارتنا وحضارتهم ، وموقفنا وموقفهم بين المادة والروح .

لقد تحدث عن هذا الموضوع حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » ومن بحر علمه أغترف ، وعلى ضوء فكره أمضى فى هذا البحث ما تيسر لى المضىّ .

أسأل الله تعالى أن يثقل بما نكتب موازيننا يوم القيامة ، ونسأله تعالى أن يتجاوز عن سيئاتنا ، وأن يحسن لنا العقبى والنهاية .

وفـــاة النبـــى
(صلى الله عليه وسلم)

عقب رجوعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حجة الوداع ابتدأ يشكو المرض فى أواخر شهر صفر أو أوائل شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة .

تلك الحجة التى سماها المسلمون حجة الوداع ، لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ توفى بعد أدائها بوقت قليل ، فعقب رجوعه إلى المدينة توعكت صحته ، واعتل بدنه .

وأول ما كان من هذا الأمر أنه خرج إلى بقيع الفرقد فى جوف الليل ، فاستغفر لأهل البقيع ، وكان بصحبته خادمه أبو مويهبة .

فلما وقف بين أظهرهم قال : السلام عليكم ياأهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى .

ثم التفت إلى خادمه أبى مويهبة وقال له :

ياأبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك ولقاء ربى والجنة .

فقال له أبو مويهبة : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا والله ياأبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربي والجنة !

ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف .

وعقب رجوعه من البقيع انتابه صداع شديد ، فلما دخل على السيدة عائشة وجدها تشكو رأسها وتقول : وارأساه ! فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بل أنا والله ياعائشة وارأساه !

ثم ثقل على الرسول الوجع وانتابته الحمى .

وتروى كتب السيرة النبوية أنه لما اشتد عليه المرض ، ولم يستطع أن يخرج للصلاة بالناس قال : مرو أبا بكر فليصل بالناس .

وفى يوم من أيام المرض اشتاقت نفسه للصلاة بالمسجد ، فقال لأهله : أريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن ، لعلى أعهد إلى الناس ، فصبُّوا عليه الماء ، وخرج يستند على الفضل بن العباس وعليٍّ بن أبي طالب ، فتوجَّه إلى المسجد ، فصلَّى ، وصعد المنبر ، واستغفر لأصحاب أحد ، ثم قال :

من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقِدْ منى ، ومن كنت

شتمت له عِرضا فهذا عِرضى فليستقدْ منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخشي الشحناء فإنها ليست من شأنى ! ألا وإن أحبكم إلىَّ من أخذ منى حقًّا إن كان له ، أو حلَّلنى فلقيت ربى طيِّب النفس »

ثم نزل فصلَّى الظهر ، ثم رجع إلى المنبر ، فعاد لمقالته الأولى ، فادَّعى عليه رجل بثلاثة دراهم فأعطاه عوضها ، ثم قال :

أيها الناس ، من كان عنده شيء فليؤدِّه ، ولا يقل فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » .

ثم صلَّى على أصحاب أحد ، واستغفر لهم ، ثم قال :

إن عبدا خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » فبكى أبو بكر وقال : فديناك بأنفسنا وآبائنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لا يبقينَّ بالمسجد باب إلا باب أبي بكر ، فإنى لا أعلم أحدًا أفضل فى الصحبة منه ، ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام » .

ثم أوصى بالأنصار فقال :

يامعشر المهاجرين ، أصبحتم تزيدون ، وأصبحت الأنصار لا تزيد ، والأنصار عيبتى (يعنى موضع سرى) التى أويت إليها ،

فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » .

وتروى كتب السيرة النبوية أن بعض أصحابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذهبوا إليه يعودونه فى مرضه ـ وكان المرض قد ثقل عليه ـ فنظر إليهم ، فشدد النظر ، ودمعت عيناه ، وقال :

مرحبا بكم !
حياكم الله !
آواكم الله !
حفظكم الله !
رفعكم الله !
وفقكم الله !
سلمكم الله !
قبلكم الله !

أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، وأؤديكم إليه . إنى لكم منه نذير وبشير ، ألاَّ تعلُوا على الله فى عباده وبلاده ، فإنه قال لى ولكم : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .

ومن منطلق حبهم وإخلاصهم لرسول الله ، وإيمانهم بقضاء الله سألوه : فمتى الأجل يارسول الله ؟

قال : دنا الفراق ! والمنقلب إلى الله ! وإلى سدرة المنتهى ! والرفيق الأعلى ! وجنة المأوى !

قالوا : فمن يغسلك ؟

قال : أهلي .

قالوا : فبم نكفنك ؟

قال : فى ثيابي ، أو فى بياض .

قالوا : فمن يصلِّي عليك ؟

قال : مهلاً ! غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً .

فبكوا وبكى ثم قال :

ضعونى على سريرى ، على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنى ساعة ليصلِّي عليَّ جبريل وإسرافيل وميكائيل مع الملائكة ، ثم ادخلوا عليَّ فوجاً فوجاً ، فصلُّوا عليَّ ، ولا تؤذونى بباكية ولا رانَّة .

اقرأوا على أنفسكم منى السلام ، ومن غاب من أصحابي فأقرأوه منى السلام ، ومن تابعكم على دينكم فأقرأوه منى السلام » .

وخرج عليٌّ بن أبي طالب من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال الناس : كيف أصبح رسول الله ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده العباس وقال : أنت بعد ثلاث عبد العصا ، وإنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيتوفى فى مرضه هذا ، وإنى

لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاسأله فيمن يكون هذا الأمر (يقصد خلافة رسول الله) فإن كان فينا علمناه ، وإن كان فى غيرنا أوصى بنا ، فقال عليٌّ رضى الله عنه : لئن سألناها فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً ، والله لا أسألها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وتروى كتب السيرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يدخل فى غمرات الموت وجد فى نفسه خفّة ، فخرج حتى أتى المسجد ، فوجد أبا بكر وهو قائم يصلِّى بالناس ، فاستأخر أبو بكر ، فأشار إليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إشارة معناها أن يبقى كما هو ، فجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجانب أبى بكر ، فكان أبو بكر يصلِّى بصلاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وكان الناس يصلُّون بصلاة أبى بكر .

وفرح المسلمون بخروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستبشروا خيراً ، وما دَرَوْا أنها صلاة وداع !

واشتدت عليه البُرَحَاء ، وثقلت عليه الحمىّ ، فأُتى له بقدح فيه ماء ، فجعل يأخذ الماء بيده ، ويمسح به وجهه ، ويقول :

« اللهم أعنى على سكرات الموت »

« اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ، اللهم فأَعنّى على الموت وهوِّنْه علىَّ » .

وكان يُغشى عليه فإذا أفاق قال : الصلاة . الصلاة .

وكان يقول : واكرباه ! فتنتحب السيدة فاطمة الزهراء ، وتقول : واكربي، لكربك ياأبت ! فيقول لها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لاكرب على أبيك بعد اليوم ! »

ورقَّ لها الرسول فاستدناها منه ، وأسرَّ إليها أنه سيموت فبكت ، ثم أسرَّ إليها أنها سيدة نساء الجنة فضحكت !

وروى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه دخل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يُوَعك ، فقال : يارسول الله ، إنك لتوعك وعكا شديدا ، قال : أجل ، إنى لأوعك كما يوعك رجلان منكم ، فقال ابن مسعود : إن لك لأجرَيْن ، قال : نعم ، والذى نفسى بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ الله عنه خطاياه كما تحطُّ الشجرة ورقها » .

وتروى كتب السيرة أنهم لدُّوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، يعنى سقوه لدوداً أثناء غشيته من أحد جانبي فمه ، فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشير إليهم ـ وهو مغمى عليه ـ ألا يفعلوا ، وكانوا يعتقدون أن الحامل له على ذلك كراهة المريض للدواء ، وحسبوه مريضا بذات الجنب ، فأخبرهم أن هذا المرض لا يموت به الأنبياء . قالوا : وإنما كره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لأنه كان صائما . وكانت عنده سبعة دنانير أو ستة ، فأمر عائشة ـ رضى الله

عنها ـ أن تتصدق بها بعد أن وضعها فى كفه ، وقال : ما ظنّ محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده ! »

وأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعالج سكرات الموت ويدخل فى غمراته ، قالت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ :

ما رأيت الوجع على أحد أشدَّ منه على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. ولا أغبط أحداً يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

قال العلماء : والحكمة فيما شوهد من شدة ما لقى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الكرب عند الموت تسلية أمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا وقع لأحدهم شىء من ذلك عند الموت .

وعلل بعضهم ذلك بأن مزاجه الشريف أعدل الأمزجة ، ومن ثم فإحساسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالوجع أكثر من غيره ، ومن هنا جاء قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنى لأوعك كما يوعك رجلان منكم » لأن تشبث الحياة الإنسانية ببدنه الشريف أقوى من تشبثها ببدن غيره .

وكانت آخر كلمة نطق بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فى الرفيق الأعلى .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ :

إن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته ، دخل علىّ عبد الرحمن

وبيده سواك ، وأنا مسندة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناولته ، فاشتدَّ عليه ، فقلت : أُلَيِّنُهُ لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فليَّنته ، فأمرَّه ، وبين يديه ركوة ، فجعل يدخل يديه فيمسح وجهه ويقول :

لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات ، ثم نصب يده فجعل يقول : فى الرفيق الأعلى ، حتى قبض ، ومالت يده .

وعندما أعلنت وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ دهش الناس ، وطاشت عقولهم ، واستولى عليهم الذهول ، فهذا سيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ أُخرس ماينطق بكلمة ، وعليٌّ ـ رضى الله عنه ـ أُقعد ، وعمر ـ رضى الله عنه ـ صار إلى ناحية من نواحى المسجد ، وجعل يقول : والله ما مات !

فقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يحبون نبيهم حباً جماً ، فكان أحب إليهم من أموالهم وأولادهم وآبائهم وأمهاتهم ، لأن حب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر يحتمه الدين عملا بمضمون قوله تعالى : « قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ

ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

فيجب علينا محبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لأنه هدانا إلى الله ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وجاء بالدين القويم الذى يكفل للإنسان سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

وكان أصحابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعرف الناس بشمائله وفضائله وآدابه وأخلاقه ، فكان الرجل منهم يقدم بين يدى مخاطبته بهذه الكلمة الجميلة : بأبي أنت وأمي يارسول الله !

ولقد آمنوا به وصدقوه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وصبروا معه على البلاء ، وخاضوا معه الحروب والمعارك والغزوات ، حتى أتم الله لهم النصر ، وأظهر لهم الدين ، وأتمَّ عليهم النعمة .

وها هو ذا الحبيب ينطفئ سراج حياته أمامهم ، فلا غرو أن يصيبهم الذهول ، وتذهب العقول ، ولفقد الأحبة صدمة تعطل الفكر ، وتذهب باللب ، وكأنهم ما قرأوا قول الحق سبحانه « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ وقوله جل وعلا : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾

إنه القانون الإلهى الذى لا يتخلف ، ويمتد فيشمل كل شىء حتى الرسل والأنبياء .

وكان أبو بكر حينما قبض الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمنزله بالسنح ، وهى ضاحية قريبة من المدينة ، فلما حضر وجد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يخاطب الناس ويقول :

إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد مات ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، والله ليرجعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات .

وأقبل أبو بكر ـ وعمر يكلم الناس ـ فدخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو مسجىً فى ناحية البيت ، فكشف عن وجهه ، ثم قبَّله ، وقال :

بأبى أنت وأمى ، طبت حياً ، وطبت ميتاً ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد متَّها » ثم ردَّ الثوب على وجهه ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فأمره بالسكوت ، وقال :

أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ فلما سمع عمر هذا القول

من أبى بكر سكنت نفسه ، وعاد إليه فكره ، وأيقن أن الرسول قد مات .

وأغلق بنو المطلب عليهم الباب حتى يجهزوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ونادت الأنصار : نحن عصبته ، فصاح أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : يامعشر المسلمين ، كل قوم أحق بجنازتهم من غيرهم ، فننشدكم الله ، فإنكم إن دخلتم أخرتموهم عنه ، والله لا يدخل عليه إلا من دُعى .

وجاء العباس ومعه بنو عبد المطلب فقاموا على الباب ، فجعل يقول : بأبى أنت ، طبت حيا ، وطبت ميتا ! وسطعت ريح طيبة لم يجدوا مثلها ! فقال العباس : إيهًا ، دع حنينا كحنين المرأة ، وأقبلوا على صاحبكم .

وأخذوا فى غسله وتجهيزه ، ووضعوه على سريره ، ودخل أبو بكر وعمر ، ثم صفوا صفوفا لا يؤمُّهم أحد ، فقالا :

السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، اللهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل عليه من ربه ، ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيل الله ، حتى أعزَّ الله دينه ، وتمّتْ كلمته .

وأُومن به وحده لا شريك له ، فاجعلنا إلهنا ممن يتبع القول الذى

أنزل معه ، واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به ، فإنه كان بالمؤمنين رحيما .

لا نبتغى بالإيمان به بديلا ، ولا نشترى به ثمناً أبداً » .

فيقول الناس : آمين آمين ، ويخرجون ويدخل آخرون ، حتى صلى الرجال ثم النساء ثم الصبيان .

وأخذت أم أيمن حاضنته تبكى ، فقيل لها : ما يبكيك ياأم أيمن ؟ قد أكرم الله نبيه فأدخله جنته ، وأراحه من نصب الدنيا ! فقالت : إنما أبكى على خبر السماء ، كان يأتينا غضًّا جديدا كل يوم وليلة ، فقد انقطع ورفع !

ورثاه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بقوله :

أرقتُ فبات ليلى لا يزولُ
وليل أخى المصيبة فيه طولُ

وأسعدنى البكاء وذاك فيما
أصيب المسلمون به قليلُ

وأضحت أرضنا مما عراها
تكاد بنا جوانبها تميلُ

فقدنا الوحى والتنزيل فينا
يروح به ويغدو جبرئيلُ

وذاك أحق ما سالت عليه
نفوس الناس أو كادت تسيلُ

نبيٌّ كان يجلو الشك عنا
بما يُوحَى إليه وما يقولُ

ويهدينا فلا نخشى ضلالا
علينا والرسول لنا دليلُ

أفاطم إن جزعتِ فذاك عذر
وإن لم تجزعى ذاك السبيلُ

فقبر أبيك سيد كل قبر
وفيه سيد الناس الرسولُ

* * *

وفـاة أبى بـكر

رحم الله أبا بكر ، لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالاً .

كلمة قالها عمر رضى الله عنه ، وصدق عمر ، فى معجزة تاريخية من معجزات الإسلام تم فى عهده فتح العراق والشام وغزو فارس ، والقضاء على أهل الردة ، وانتشار الإسلام فى شرق الجزيرة وغربها .

وفى عهده جمع القرآن ، وتأصَّل مبدأ الشورى لتحقيق العدل والحرية والمساواة ، وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلو وُزن إيمان هذه الأمة ووضع فى كفة ، ووضع إيمان أبى بكر فى الكفة الأخرى ، لرجح إيمان أبى بكر !

فلا غرو أن يغتبط الصديق بلقاء ربه حين حضرته الوفاة ، فقد خرج من الدنيا غير ملوم ولا معاتب ، ولكنه ـ وهو فى مرض الوفاة ـ يأبى إلا أن يحاسب نفسه ويلومها على بضعة أشياء ليس له فيها يد ، فما هى هذه الأشياء التى حاسب عليها نفسه قبل أن يموت ؟

قال أبو بكر رضى الله عنه :

ما أنا إلا على ثلاث فعلتها وددت أنى تركتها ، وثلاث تركتها وددت أنى فعلتها ، وثلاث وددت أنى سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها .

فأما الثلاث التى فعلتها وودت أنى تركتها ، فوددت أنى لم أكن فتشت بيت فاطمة .

ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة ، وأطلقته نجيحا أو قتلته صريحا .

ووددت أنى يوم السقيفة ـ سقيفة بنى ساعدة ـ قد رميت الأمر فى عنق أحد الرجلين ، فكان أميرا وكنت وزيرا .

والثلاث التى تركتها ووددت أنى فعلتها ،

وددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيرا ضربت عنقه ، فإنه قد خيِّل إلىَّ أنه لا يرى شرًّا إلا أعانه .

ووددت أنى كنت قد قذفت المشرق لعمر بن الخطاب فكنت قد بسطت يمينى وشمالى فى سبيل الله .

ووددت أنى يوم جهزت جيش الردة ورجعت قمت مكانى ، فإن سلم المسلمون سلموا ، وإن كان غير ذلك كنت صدر اللقاء أو مددا .

والثلاث التى وددت أنى سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها ، وددت أنى سألته عن ميراث العمة وبنت الأخ ، فإنَّ بنفسى منهما حاجة . ووددت أنى سألته : هل للأنصار فى هذا نصيب فنعطيهم إياه » .

هذه تسع مسائل أو قضايا راجع فيها الصديق ـ رضى الله عنه ـ

نفسه وهو على فراش المرض ، وهذه المسائل تحتاج إلى بعض التوضيح .

أما تفتيش بيت فاطمة فقد أشيع أن على بن أبي طالب قد تلكأ فى مبايعة أبي بكر ، فلم يحضر يوم السقيفة ، لأنه كان مشغولا بتجهيز النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فلم يحضر البيعة ، وقيل إنه امتنع عنها ، وانحاز إليه جماعة من المهاجرين والأنصار ، واجتمعوا فى بيت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ، وبلغ أبا بكر وعمر اجتماعهم ، فذهبا إلى دار فاطمة ، واقتحما الدار ، وحدثت مشادة بين عمر وعلىٍّ ، فخرجت السيدة فاطمة وقالت : والله لتخرجن أو لأكشفن شعرى.ولأعجّنّ إلى الله » فخرج وخرج من كان بالدار ، ثم بعد ذلك بمدة بايع علىٌّ أبا بكر .

وموقف الصديق هنا كان هو القضاء على بوادر فتنة لا يعلم إلا الله كيف تنتهى لو لم تؤخذ بالحزم من البداية .

والقضية الثانية قضية رجل مجرم عتىّ فى الإجرام اسمه إياس بن عبد ياليل ، ويلقب بالفجاءة ، استثار الصديق ـ رضى الله عنه ـ ، فقد عاهده على قتال المرتدين ، وأخذ من أبي بكر السلاح والمال لهذا الغرض ، ولكنه نكث بوعده ، بل وقطع الطريق على المسلمين ، وعاث فى الأرض فساداً ، وأصبح مصدر خطر داهم ، يقتل ويسلب وينهب ، فلما ظفر به الصديق أمر أن يحرق بالنار ، فتمنى لو كان أطلق سراحه أو قتله بغير الحرق .

أما الثالثة فقد تمنى لو طرح عن نفسه قبول الخلافة . وهذا التمنى لا ينبع عن نكوص أو تهرب من أداء واجب محتوم ، وإنما هو إحساس وشعور حيّ بعظم المسئولية مهما بذل فى الحكم من طاقة وتدبير ، فتمنى لو كانت الخلافة أخطأته وأصابت أحد صاحبيه أبا عبيدة بن الجراح أو عمر بن الخطاب ، فالحكم فى الفكر الإسلامى تكليف لا تشريف ، ومسئولية وليست وجاهة ، وعطاء وبذل ، ولهذا وجدنا عمر بن الخطاب من بعده يتمنى ذات الأمنية ، ويقول ليتنى لم أتولَّ هذا الأمر !

فالوازع الدينى والشعور بخطورة التبعة والمسئولية هما اللذان أمليا على الصديق ، وعلى عمر من بعده هذا الزهد والعزوف عن الخلافة والإمارة .

ولقد روى أن الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال عن الإمارة : سألت رسول الله عن هذا الأمر ، فقال لى : يا أبا بكر ، هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يجاحش عليه ، وهو لمن يتضاءل عنه ، لا لمن يشمخ إليه !

لله درك ياصاحب رسول الله !
ياثانى اثنين إذ هما فى الغار .
يامحرر العبيد والأذلاء والضعفاء .
يامن جاهدت بنفسك ومالك فى نصرة الإسلام .

هذه هى المسائل الثلاث اللاتى فعلهن الصديق ، وتمنى لو كان تركهن ، أما الثلاث اللاتى تركهن ، وكان يود لو فعلهن .

فأولاها قصة الأشعث بن قيس ، وهو أحد زعماء المرتدين الذين حاربوا المسلمين ، وتصدى أبو بكر لمواجهتهم فى عزم وحزم ، كان الأشعث زعيم كندة ، وكان قد وفد على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عام الوفود على رأس ثمانين رجلا من قومه ، فأسلم وأسلموا ، وخطب إلى أبى بكر أخته أم فروة ، وعقد له عليها ، ولكنه تريث فلم يشخصها معه .

فلما لحق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الأعلى ، وفشت الردة فى بلاد العرب ، ارتد الأشعث وقومه ، وأعلنها على المسلمين حربا لا هوادة فيها ، ولكنه فى النهاية أدرك أنه لا قبل له فى الاستمرار ، فاتصل بعكرمة ليطلب له من المهاجر بن أبى أمية المخزومى الذى عقد له أبو بكر إمارة اللواء لقتال المرتدين ـ أن يُؤَمِّنه وتسعة معه ، على أن يسلم للمسلمين حصن النجير الذى اعتصم به ، وأسلم قومه للقتل ، وألف امرأة للسبى ، وحين أملى الأشعث أسماء التسعة نسى نفسه ، فلما لم يجد المهاجر اسمه مكتوبا بعث به أسيرا إلى أبى بكر ليرى فيه رأيه ، فلما مثل بين يدى أبى بكر استعطفه الأشعث فى أن يبقى على حياته ، وأن يقيل عثرته ، وأن يقبل إسلامه ، وتعهد بأن يكون خير أهل بلاده لدين الله ، فغفر له أبو بكر ، وردَّ عليه زوجته أم

فروة ، وكان الأشعث ـ قبل أن يرد بعض الاعتبار لنفسه فى عهد عمر بن الخطاب باشتراكه فى فتح العراق والشام ـ كان مكروها محتقرا من المسلمين ، لأنه غدر بقومه ، وسموه « عرف النار » وهى كلمة يمنية معناها الغادر .

والمسألة الثانية التى كان يتمنى أبو بكر لو أمضاها ، فهى تولية عمر بن الخطاب بلاد المشرق ، وفى تقدير أبى بكر لو فعل ذلك لامتدت الفتوحات فى عهده فى جميع الأرجاء والأنحاء .

المسألة الثالثة تمنى لو لم يكن قد خرج إلى ذى القصة ، وتوضيح ذلك أنه بعد أن عاد بعث أسامة من أرض الروم غانما مظفرا ، استخلف أسامة على المدينة ، وأمر جيشه أن يستريح ، ونادى فى المسلمين بالخروج معه إلى ذى القصة ، فناشده المسلمون قائلين : ننشدك الله ياخليفة رسول الله أن تعرِّض نفسك ، فإنك إن تُصَبْ لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدوّ ، فابعث رجلا ، فإن أصيب أمَّرت رجلا آخر » .

ولكن أبا بكر كان ذا عزيمة صادقة فعزم على أن يقود الجيش بنفسه وقال : « لا ، والله لا أفعل ، ولأواسينكم بنفسى » وخرج بالجيش حتى نزل بالأبرق من أرض ذى القصة ، وقاتل عبسا وذبيان ، وكانوا فيمن ارتدوا ارتدادا جزئيا فمنعوا الزكاة ، فأخضعهم أبو بكر .

فقد أدرك أبو بكر ـ وهو على فراش المرض ـ دقة الموقف الذى

عرَّض فيه نفسه بقيادته للجيش بنفسه .

بقيت الثلاث الأخريات اللاتى كانت من الهواجس التى هجست فى صدره ، وتحدث عنها فى مرض موته ، أولى هذه المسائل وثانيتها ميراث العمة ، وميراث بنت الأخ ، وهما من مسائل الميراث وحقوق الوارثين ، وثالثتها مدى مشاركة الأنصار فى مسئوليات الحكم ، فإنهم طلبوا يوم السقيفة أن يكون الخليفة منهم ، ثم قالوا : منا أمير ، ومنكم أمير .

هكذا حاسب أبو بكر نفسه ، فقد كان يهتم بكل كبيرة وصغيرة من مسائل المسلمين ، وأهمُّ ما شغله على فراش المرض مسألة من يخلفه بعد وفاته ، فما زال النقاش الذى دار يوم السقيفة فيمن يخلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عالقا بذهنه ، وكان استخلافه فلتة وقى الله المسلمين شرها ـ كما قال عمر بن الخطاب ـ وتدبر أبو بكر هذا الأمر ، فلم يجد سابقة يستند إليها فى هذا الشأن ، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يستخلف أبا بكر صراحة ، وإن كان قد أمر بأن يؤُمَّ المسلمين فى الصلاة ، ولقد استُنْتِج من هذه الإمامة أنه إيحاء باستخلافه .

وهاهو أبو بكر يستشير أصحاب رسول الله فى أمر استخلاف عمر من بعده حتى يجنِّب المسلمين العثرات ، فطرح هذا الموضوع عليهم ، ولاشك أن هذا سيرهقه فى مرضه ، فاعترض طلحة بن عبيد الله

وقال : ماذا تقول لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ ! فانبرى له أبو بكر وقال فى حدَّة وغضب :

أبا لله تخوفوننى ؟ ! خاب من تزوَّد من أمركم بظلم ! أقول : اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك .

ويتدخل عبد الرحمن بن عوف ليُهدِّئَ الصديق فيقول له : خفِّض عليك رحمك الله ، فإن هذا يهيضك ، إنما الناس فى أمرك بين رجلين ، إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك ، وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيراً ، ولم تزل صالحاً مصلحاً » .

وتم استخلاف عمر ، فدعا عثمان وأملاه عهد الاستخلاف ، ونصه : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماعهد أبو بكر بن قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب .

إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإنى لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيرا ، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وإن بدَّل فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم ، والخيرَ أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

وكان أبو بكر قد أراد أن يستوثق لهذا الأمر خشية أن يختلف الناس ، فأشرف عليهم من حجرة بداره ، وقال لهم : أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإنى والله ما ألوتُ من جهد الرأى ، ولا ولَّيت ذا قرابة ، وإنى استخلفت عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا » قالوا : « سمعنا وأطعنا » .

أو تدرى ماذا قال عمر لأبى بكر حين عزم على استخلافه ؟
قال عمر : لا حاجة لى فى الإمارة !

قال أبو بكر : ولكن لها بك حاجة ياعمر ! إنى إنما استخلفتك نظرًا لما خلفت ورائى ، قد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبته ، ورأيت إيثاره أنفسنا على نفسه ، حتى إن كنا لنهدى لأهله فضل ما يأتينا به !

« ورأيتنى وصحبتنى ، وإنما اتبعت أثر من كان قبلى ، والله ما نمت فحلمت ، ولا توهمت فسهوت ، وإنى لعلى السبيل مازغت » ثم أخذ يوصى عمر :

ياعمر ، إن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقا فى النهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة . ألم تر ياعمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا حقٌّ أن يكون ثقيلا !

ألم تر ياعمر ، إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة

باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا باطل أن يكون خفيفا !

ألم تر ياعمر ، إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة ، وآية الشدة مع آية الرخاء ، ليكون المؤمن راغباً راهباً ، لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ماليس له ، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه . ألم تر ياعمر ، إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى لأرجو ألا أكون منهم ، وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ، لأنه تجاوز لهم عما كان من سيئ ، فإذا ذكرتهم قلت : أين عملى من أعمالهم ؟ !

« فإن حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت ، ولست بمعجزه » .

وإذا كنت أترك التعليق على هذه المبادئ والمثل العليا التى لم تكن مجرد شعارات ، وإنما كانت تطبق وتنفذ دون طنطنة ، إذا كنت أترك التعليق هنا لأحافظ على وحدة الموضوع والهدف الذى أتغيَّاه فى هذا الكتاب ، فإنى لا أستطيع أن أترك العبارة الأخيرة أو الوصية الأخيرة من هذه الوصايا السامية : « لا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت » فالمؤمن الحق ، والمؤمن الكامل الإيمان يجعل الموت دائما نصب عينيه ، فهو الغائب الحاضر على الدوام !

فمن يتذكر الموت يتجرد للحياة ، فيعطيها خير ما عنده ، وتنبعث من نفسه الخيرة بواعث الخير والأمل والتفاؤل بأنَّ ما عند الله خير

وأبقى ، ويأنف من الدنايا والسفاسف ، فيتحلَّى بالصدق والأمانة والشرف والإخلاص والوفاء ، ويبتعد عن أخلاق الحرص والبخل والملق والخسة والدناءة والنفاق ، ولا يفكر إلا فى البذل والعطاء ، لا يهمه كم أخذ ، ولكنه يهمه كم أعطى !

يقول أبو بكر فى وصيته لعمر عن الموت « ولست بمعجزه » فسواء فكرت فى الموت أم لم تفكر فيه فهو ملاقيك ، أو أنت ملاقيه بعد عمر طويل إن شاء الله !

وتذكر قول الله عز وجل : «أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ » .

إنها وصية غالية يوصى بها عمرَ أبو بكر ، ويوصينا نحن من خلال ذلك ، فهو الأستاذ الأول فى مدرسة النبوة بعد رسول الله ، وهو الحائز عن جدارة على درجة « الصديقية » مع مرتبة الشرف الممتازة !

لله درك ياأبا عائشة ! لقد أتعبت من بعدك كما قال عمر ! أراد أبو بكر أن يصفى حسابه مع الدنيا قبل أن يغادرها ، فكانت الحسابات العامة هى الأهم ، ثم نظر إلى نفسه ، فأوصى بأن يرد ماعنده من مال لبيت مال المسلمين ، فماذا كان عندك ياخليفة رسول الله ؟

عبد ، وجمل ، وقطيفة ثمنها خمسة دراهم !

وأوصى أن يكفن فى ثيابه ، ولما ذكر له الجديد قال : الحىّ أولى

من الميت بالجديد ، إنما الكفن للمهلة والصديد !

ولم تغب عنه وهو فى غمرات الموت التفاتة ذهنه ، ولا دقة ملاحظته ، فقد جلست بنته السيدة عائشة بجواره وأنشدت :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ربيع اليتامى عصبة للأرامل

فالتفت إليها أبو بكر وقال : ذاك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وتمثلت بقول حاتم الطائى :

لعمرك مايغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فيقول لعائشة : ليس كذا ياعائشة ، ولكن قولى « وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ »

كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فرحا بلقاء الله ، فقد عرضوا عليه فى مرضه أن يأتوا له بطبيب ، فقال : قد أتانى ، وقال لى : « أنا فاعل ما أريد » ففهموا قصده وسكتوا عنه ، ثم مات ، ودفن مع رسول الله ، وكان آخر ماتكلم به :

« توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين »

وبعد دفنه وقفت السيدة عائشة على قبره ، وقالت فى تأبينه : نضَّر الله وجهك ياأبت ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مُذِلاًّ بإدبارك عنها ، وللآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها . ولئن كان أعظمَ المصائب بعد فقْد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رزؤك ، وأكبرَ الأحداث بعده فقْدُك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا متنجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك ، فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك » .

* * *

وفـــاة عُـمَــر

أعدل حاكم عرفه التاريخ وشهدته البشرية مات قتيلا بيدٍ آثمة مجرمة مجوسية ، ما أعجب مفارقات الحياة !

ولعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ثانى خلفاء رسول الله فى إقرار الحق وتوطيد دعائم العدل قصص تشبه الأساطير ، وعلى الرغم من كل هذا يموت قتيلا فى مؤامرة مدبرة من أعداء الإسلام والمسلمين ، فلم يكن مقتله حادثة فردية وإن تولى تنفيذها أبو فيروز لؤلؤة المجوسى ، والتاريخ يردد اسم « الهرمزان » حفيد الأكاسرة الذى قضى الإسلام على ملك آبائه وأجداده ، لقد أسلم فى الظاهر ، ولكنه عاش يحمل فى صدره على الإسلام والمسلمين حقدا وسخيمة ، وبخاصة على عمر الذى تم فى عهده اتساع رقعة الإسلام فى الشرق والغرب ، وتقوضت مملكة فارس وأجزاء كبيرة من مملكة الروم .

كما يردد التاريخ اسم « جفينة » وهو نصرانى من نصارى الحيرة ، و « كعب الأحبار » وهو يهودى أسلم فى الظاهر ليكيد للإسلام من داخله ، وهى دلائل تشير إلى أن مقتل عمر كان مؤامرة محبوكة الأطراف اشتركت فيها فارس والروم واليهود .

والمؤرخون يروون قصة مقتل عمر على هذا النحو :

جاءه غلام المغيرة بن شعبة لؤلؤة المجوسى ، وهو من سبى فارس ، فشكا إليه سيده المغيرة الذى وضع عليه خراجا ثقيلا ، فسأله عمر : كم خراجك ؟

قال لؤلؤة : درهمان فى اليوم .
قال عمر : وما صناعتك ؟
قال لؤلؤة : نجار ونقاش وحداد .
قال عمر : ما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من أعمال .

ثم قال له عمر : سمعت أنك تقول : لو أردت أن أصنع رحاً تطحن بالريح لفعلت .

قال لؤلؤة : نعم .
قال عمر : اصنع لى رحا .
قال لؤلؤة : (وكأن خاطرا شريرا دار بنفسه) إن عشت لأعملن لك رحا يتحدث بها الناس فى المشرق والمغرب ! وانصرف .
قال عمر : (وقد أحسَّ بما تحمله هذه العبارة من مواربة) : لقد توعدنى العبد !

ومرَّ يومان ، وفى اليوم الثالث خرج عمر كعادته لصلاة الصبح ، حتى إذا ما سوَّى الصفوف للصلاة ، وتقدَّم وكبَّر ، افتقد المسلمون صوت عمر ، وسمعه بعض المصلين فى الصفوف الأولى يقول : أكلنى الكلب !

وأخذ المصلون فى الصفوف الخلفية يرددون : سبحان الله ! سبحان الله ! اعتقاداً منهم أن عمر أخذه السهو.

وفرَّ القاتل بخنجره ذى الرأسين بعد أن طعن عمر ست طعنات ، وأخذ لا يمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، فلما أيقن أنه مأخوذ نحر نفسه.

وصلَّى عبد الرحمن بن عوف بالناس صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا نظر عمر إلى عبد الله بن عباس فقال له : انظر من قتلنى ، فغاب عبد الله برهة ثم عاد وقال له : إنه غلام المغيرة بن شعبة ، فقال عمر : قاتله الله ! لقد كنت أمرت به معروفا ، الحمد لله الذى لم يجعل منيَّتى بيد رجل مسلم ! ».

ثم التفت إلى ابن عباس وقال : قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة !

فقال ابن عباس : إن شئت فعلت (أى قتلنا هؤلاء العلوج أى الفرس).

قال عمر : بعد ما تكلموا بلسانكم ، وصلُّوا إلى قبلتكم ، وحجُّوا حجكم ؟ ! وكأن عمر قد أحسَّ بقرب نهايته حينما حدث الناس قبل ذلك فى يوم جمعة ، فقال من فوق المنبر :

إنى قد رأيت رؤيا أظنها لحضور أجلى ، رأيت كأن ديكاً نقرنى

نقرتين ، فقصصتها على أسماء بنت عميس فقالت : يقتلك رجل من العجم ! ونميل إلى تصديق هذه القصة ، فقد كان عمر ـ رضى الله عنه ـ من المحدَّثين الملهمين ، كما أخبر بذلك النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وكما وقع له فى قصة سارية .

وحُمل عمر إلى داره ، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، وجاءوا إليه بطبيب فسقاه نبيذا (وهو منقوع التمر) فخرج من جوفه ممزوجا بدمه ، فعرفوا أنه ميت .

وجاء شاب فقال : أبشر ياأمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ، قد كان لك صحبة مع رسول الله ، وقدم فى الإسلام ، ثم شهادة !

فقال عمر : وددت لو كان ذلك كفافا ، لا علىَّ ولا لى . ثم أدبر الشاب ، فإذا إزاره يمسُّ الأرض ، فقال عمر : رُدُّوا إلىَّ الغلام ، فردُّوه ، فقال له عمر : ياابن أخى ، ارفع ثوبك ، فإنه أنقى لثوبك ، وأتقى لربك » .

هكذا على الرغم من الطعنات الست والدم الذى ينزف لا ينسى عمر أن يرشد هذا الشاب إلى ما يراه أجمل وأنقى وأتقى !

والتفت عمر إلى عبد الله وقال له : انظر ما علىَّ من الدين ، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه ، فقال عمر : إن وفىَّ به آل عمر فأدِّه من أموالهم ، وإلا فسلْ فى بنى عدىّ بن كعب (قوم عمر)

فإن لم تفِ أموالهم فسلْ فى قريش ، ولا تعدُهم إلى غيرهم ، وأدِّ عنى هذا المال .

ثم أمر ابنه عبد الله بأن ينطلق إلى دار أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ ليستأذنها ويبلغها رغبة عمر فى أن يدفن مع صاحبيه ، رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر ، فذهب عبد الله ، فلما رجع قال عمر : أسندونى ، فأسنده رجل ، فقال : مالديك ياعبد الله ؟ قال : الذى تحب ياأمير المؤمنين ، قد أذِنَتْ .

قال عمر : الحمد لله ، ما كان شىء أهمَّ إلىَّ من ذلك ! ثم قال عمر : فإذا قبضت فاحملونى ، ثم سلِّم وقل : يستأذن عمر ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإن أذنتْ لى فأدخلونى ، وإن ردَّتنى فردُّونى إلى مقابر المسلمين .

وسمع عمر صوت أم كلثوم تندبه وتقول : واعمراه ! وكان معها نسوة يبكين ، فارتجَّ البيت بالبكاء ، فقال عمر :

ويل أم عمر ! إن الله لم يغفر له !

فقال ابن عباس : والله إنى لأرجو ألا تراها (يقصد النار) إلا مقدار قول الله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » ، إن كنت ما علمنا إلا أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، تقضى بالكتاب ، وتقسم بالسوية !

فاستوى عمر جالسا وقال : أتشهد لى بهذا ياابن عباس ؟

قال ابن عباس ، راوى هذا الخبر : فتوقفت ، فضرب علىَّ

ـ رضى الله عنه ـ بين كتفيه ، وقال : اشهدْ وأنا معك ، فقلت : نعم أشهد .

ثم قيل لعمر : لو استخلفت !

قال : من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول « إنه أمين هذه الأمة » ولو كان « سالم » مولى حذيفة حيا استخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول « إن سالما شديد الحب لله » .

فقال رجل : أدُلُّك عليه ، عبد الله بن عمر !

فقال عمر : قاتلك الله ! والله ما أردت بهذا ! ويحك ! كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ !

لا أرب لنا فى أموركم ! ما حمدتها حتى أرغب فيها لأحد من أهل بيتى ! إن كان خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فشرعنا آل عمر ! بحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجل واحد ، ويُسأل عن أمة محمد ! ! أما لقد جهدت نفسى ، وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر ، إنى إذن لسعيد ! ! »

لله ما أسماك ياعمر ! ، ياوثيقة الإسلام الخالدة ! !

ثم أوصى فقال :

ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو عنهم راضٍ ، فسمى عليا ، وعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وسعدا ، وعبد الرحمن .

وقال : « يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شىء ، فإن أصابت الإمارة سعداً فذاك ، وإلا فليستعن به أيكم أُمِّر ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة » .

وبهذا جعل عمر ـ رضى الله عنه ـ الخلافة فى واحد من ستة نفر هم علىّ بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ينتخبون الخليفة من بينهم ، وجعل عبد الله بن عمر مرجحا بصوته عند تساوى الأصوات .

وأوصى عمر من ينتخب خليفة من بعده فقال :

أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين ، أن يعرف لهم فضلهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرا ، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيرا ، فإنهم ردء (عون) الإسلام ، وحياة الأموال ، وغيظ العدو ، وألا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم ، وأوصيه بالأعراب خيرا ، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم .

وأوصيه بذمة الله ـ عز وجل ـ وذمة رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل لهم من وراءهم ، ولا يكلفهم إلا طاقتهم » .

وكان كعب الأخبار قد أنذر عمر بأنه سيموت بعد ثلاثة أيام (وهذا يثبت أنه كان ضالعا فى المؤامرة) وزعم أنه وجد ذلك فى التوراة ، فلما دخل على عمر يعوده ، قال عمر :

توعدنى كعب ثلاثا أعدُّها
ولاشك أن القول ما قال كعبُ
ومابى حذار الموت إنى لميت
ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ولما احتضر ورأسه فى حجر ولده عبد الله قال :

ظلوم لنفسى غير أنى مسلم
أصلى الصلاة كلها وأصوم

ولم يزل يذكر الله ، ويديم الشهادة حتى توفى لثلاث أو لأربع من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ .

ولما غسل وكفن وحمل على سريره ، وقف عليه علىٌّ ـ كرَّم الله وجهه ـ فقال :

والله ما على الأرض رجل أحبٌّ إلىَّ أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجَّى بالثوب » .

وهكذا كانت نهاية الفاروق ـ رضى الله عنه ـ :

جزى الله خيرا من أمير وباركت
يد الله فى ذاك الأديم الممزقِ

فمن يسع أو يركب جناحىْ نعامة
ليدرك ماأوتيت بالأمس يُسبقِ

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها
بوائج فى أكمامها لم تفتقِ

أبعد قتيل فى المدينة أظلمت
له الأرض يهتزّ العضاة بأسوق ؟

تظل الحَصان البكر يلقى جنينها
نثا خبر فوق المطىِّ معلَّقِ

وما كنت أخشى أن تكون وفاته
بكفّ « سبنتى » أزرق العين مُطرقِ

* * *

وفـــاة عثمـان بن عـفــان

فى يوم أشد هولا من يوم عمر كان مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان فى حادث شغب مسلح تولدت عنه فتنة كبرى ، وليس هذا البحث مهيأ لتناول الأسباب والظروف التى أدت إلى هذه النهاية الأليمة ، ولكن لا محيص من الإشارة إليها ، ولم تحدث هذه الظروف فجأة ، بل كانت هناك أحداث تجرى ببطء على مدى سنوات حتى تفاقمت فى نهاية الأمر . وقد استغل المستغلون هذه الأحداث وبولغ فيها حتى تضخمت وتجسمت وتحول العتاب واللوم فيها إلى طعن صريح مباشر .

وكان هناك من يعمل على الكيد للإسلام من داخله ، وعلى رأسهم ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أسلم إسلاما ظاهريا ليكيد للمسلمين بطريقة خبيثة غير منظورة ، واستغل كل وسيلة لهذا الغرض ، فكان يلقى ببذور الفتنة فى مجالسه واجتماعاته وكتبه ومراسلاته ، ويرسل الدعاة إلى الأمصار ، ويتنقل بنفسه من مصر إلى مصر ، ليفرق كلمة المسلمين ، واستغل بعض الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى فضل الإمام علىّ ، فساقها مساقا خاصا يوحى إلى الناس بأن عثمان لاحق له فى الخلافة ، وأن عليا أحق منه .

وكان هناك طلاب الدنيا ومن يصيدون فى الماء العكر ، ومن يحقدون على عثمان ، وقد نصح الناصحون لعثمان بأن يعالج الأمور بالشدة والحزم ، ولكن عثمان ـ رضى الله عنه ـ كان حييًّا طيبا مسالما موادعا يفضل الهوادة والرفق ، فكان يقول : علم الله أنى لم آلُ الناس خيرا ولا نفسى ، كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، واغتفروا لهم زلاتهم » .

ولقد أفرط فى التسامح حتى اجترأ عليه العامة ، ووصلت الأمور إلى الحد الذى يقول فيه :

« آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون ، يرونكم ماتحبون ، ويسترون عنكم ماتكرهون ، يقولون لكم وتقولون ، أمثال النعام يتبعون أول ناعق ، أحب مواردهم إليهم البعيد ، لا يشربون إلا نغصا ، ويردون إلا عكرا ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور . ألا والله فقد عبتم علىَّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ، ولنت لكم ، وأوطأتكم كتفى ، وكففت عنكم يدى ولسانى فاجترأتم علىّ » .

واتفق الناقمون على عثمان على الخروج من الأمصار فى صورة الحجاج لينظروا فيما يريدون ، ويناقشوه الحساب ، فخرج جماعة من أهل مصر يقدر عددهم بألف ، ومثلهم من أهل الكوفة ، ومثلهم من

أهل البصرة ، ونزلوا بالقرب من المدينة فلما علم عثمان بنزولهم بعث إليهم علىّ بن أبي طالب ليضمن لهم عنه كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة ، فسار إليهم علىّ وناقشهم وأقنعهم فأجابوه إلى ما أراد ، وانصرفوا إلى أمصارهم أو تظاهروا بذلك ، لأنهم مالبثوا أن كروا راجعين مدّعين أنهم ظفروا فى طريقهم بغلام لعثمان متجه إلى مصر ، ومعه كتاب عليه خاتم عثمان يأمر فيه عبد الله بن سعد بن أبي سرح بمعاقبة هؤلاء الثائرين .

وأنكر عثمان هذا الكتاب الذى توحى الدلائل أنه من تدبير مروان بن الحكم كاتب عثمان ومستشاره ، فاتفق رأيهم ورأى من قدم من العراق على محاصرة عثمان فى داره ، واستمر الحصار أربعين يوما ، وطالبوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى ، وأرسل كبار الصحابة أبناءهم وأتباعهم لنصرة عثمان والدفاع عنه ، وأرسل على بن أبي طالب ابنيه الحسن والحسين .

وفى أثناء هذا الحصار كان الثوار يحاجّونه ويحاججهم ، ويناظرونه ويناظرهم ، فكان حينا يبلغون به أشياء لايجد عنها جوابا يعلن توبته ويعدهم بإصلاح ما يشكون منه ، ولكن سرعان مايفسد عليه مروان بن الحكم أمره .

قال بعض من شهدوا هذا الحصار : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ــ رضى الله عنه ــ فقال : ائتونى بصاحبيكم اللذين ألّباكم

عليّ ، فجيء بهما كأنهما حملان أو حماران ، فأشرف عليهم عثمان فقال : أنشدكم بالله والإسلام ، هل تعلمون أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة ، فقال : من يشترى بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة ، فاشتريتها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تشربون وتمنعوننى أن أشرب منها ومن ماء البحر؟ قالوا : نعم. فقال : أنشدكم بالله وبالإسلام ، هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى؟ قالوا : نعم.

فقال : أنشدكم الله والإسلام ، هل تعلمون أن المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة ، فاشتريتها بصلب مالى ، فأنتم اليوم تمنعوننى أن أصلى فيها ركعتين؟ قالوا : اللهم نعم.

قال : أنشدكم الله والإسلام ، هل تعلمون أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض ، فركضه برجله وقال : اسكن ثبير! فما عليك إلا نبي وصِدّيق وشهيدان! قالوا : اللهم نعم.

قال عثمان : الله أكبر! شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد!

« وحينما يهدأ الثوار يجيء من يصب الزيت على النار ، وبخاصة مروان الأحمق الذى بلغ به حمقه أن يخرج إلى الثوار فيقول لهم : ما شأنكم؟ قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ، شاهت وجوهكم ، جئتم

تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا ، أما والله لئن رُمْتموننا ليمرَّنَّ عليكم أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غبَّ رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله مانحن بمغلوبين على ما فى أيدينا » .

وتأزمت الأمور ، فتسور جماعة منهم دار عثمان ، منهم كنانة بن بشر التجيبى فضربه بمشقص فافتضخ الدم على المصحف ، ووقع على قوله سبحانه وتعالى «فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ وقيل : ذبحه رجل من أهل مصر يقال له عمار ، والصحيح أنه لم يتبين له قاتل معين ، بل خليط من رعاع الأمصار ، قتل رحمه الله وقد نيف على الثمانين صائما يتلو القرآن ، وأمر أبناء الصحابة بعدم الدفاع عنه ، وأن يلزموا بيوتهم ، وكان مقتله شرا تولدت عنه شرور كثيرة لحقت بالمسلمين .

وكان عثمان يتشحط فى دمه ويقول :

لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

اللهم اجمع أمة محمد .

اللهم اجمع أمة محمد .

اللهم اجمع أمة محمد .

اللهم إنى أستعديك عليهم ، وأستعينك على جميع أمورى ، وأسألك الصبر على ما ابتليتنى »

قالوا : ونبذت جثته ثلاثة أيام لم يقدر أحد على دفنه ، حتى جاء

جماعة بالليل خفية فحملوه على باب وصلوا عليه فى سرعة وعجلة ، وواروه التراب فى مكان يقال له « حش كوكب » وهو موضع عند البقيع كان اليهود يدفنون فيه موتاهم ، وعمّى قبره لئلا يعرف ، وذلك فى يوم التروية الثامن من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ .

* * *

وفــاة علىّ بن أبى طـالب

كان شيعته وأنصاره يتوجسون خيفة من اغتياله بعد الحروب الطاحنة التى خاضها يوم الجمل ، ويوم صفين ، ويوم النهروان ، فكانوا يخافون عليه الغيلة وأخذه على غرة ، فكان الإمام ـ رضى الله عنه ـ وكرم الله وجهه يقول لهم :

« إن علىَّ من الله جُنة حصينة ، فإذا جاء يومى انفرجت عنى وأسلمتنى ، فحينئذ لا يطيش السهم ولا يبرأ الكلْم » فكان موقفه ـ رضى الله عنه ـ موقف الإيمان الكامل بقضاء الله وحتمية الساعة الموعودة .

لقد امتنع عن الناس فى قبول الخلافة عقب مقتل عثمان ، ولكنهم مازالوا به حتى أجابهم ، وكانت التركة ثقيلة فواجهها بالصدق والحزم ، وكان موقفه كما لخصه فى كلمات أمينة قصار ، حيث يقول فى بعض خطبه :

أما بعد ، فإن الله بعث نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنقذ به من الضلالة ، وحفظ به من الهلكة ، وجمع به بعد الفرقة ، ثم قبضه الله إليه ، وقد أدَّى ماعليه .

ثم استخلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، ولقد أحسنا فى السيرة ، وعدلا فى الأمة ، وقد وجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحق بالأمر ، ولكنا غفرنا ذلك لهما .

ثم ولى أمر الناس عثمان ، فعمل بأشياء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناس فقتلوه ، ثم جاءنى الناس وأنا معتزل أمرهم فقالوا لى : بايع ، فأبيت عليهم ، ثم عادوا فقالوا لى : بايع ، فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس ، فبايعتهم ، فلم يُرْعنى إلا شقاق رجلين قد بايعانى (يشير إلى طلحة والزبير) وخلاف معاوية إياى ، هذا الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سلف صدق فى الإسلام ، طليق بن طليق دخلا فى الإسلام كارهين مكرهين .

« إنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيكم » .

هذا الخلاف وتلك المصادمات التى جلبت الحزن والأسى على الإسلام ، وانتهى بعد موقعة صفين ولعبة التحكيم إلى ازدياد الفرقة وظهور فرقة الخوارج التى خرجت على علىّ ومعاوية ، ولكنها حاربت عليا ، ولم يظل معه غير فئة قليلة من أنصاره وشيعته .

وكما قلت فى فصل سابق إن المجال لا يسمح بالإفاضة فى عرض الأحداث ولكنه يسمح بالإشارة إليها إشارة سريعة لنصل إلى ما اتفق عليه عزم ثلاثة من الخوارج على تصفية علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص

جسديا وتخليص المسلمين من « أئمة الضلالة » كما سموهم ، فاجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى ، وذكروا قتلاهم يوم « النهر » ، وتكفل ابن ملجم بعلىّ ، والبرك بمعاوية ، وعمرو بن بكر بعمرو بن العاص ، وتعاهدوا على أن ينفذوا مؤامرتهم فى يوم واحد اتفقوا عليه .

أما البرك بن عبد الله وعمرو بن بكر فقد أخفقا فى محاولتهما قتل معاوية وعمرو بن العاص ، ولإمر أراده الله نجح عبد الرحمن بن ملجم فى مهمته .

فقد خرج إلى الكوفة ، ولقى أصحابه ، فكاتمهم أمره ، وأعجب بامرأة من تيم الرباب اسمها قطام كانت فائقة الجمال فتقدم لخطبتها ، وكانت هذه المرأة قد فقدت أباها وأخاها فى يوم النهر ، فاشترطت عليه أن يمهرها ثلاثة آلاف ناقة ، وعبدا وقينة وقتل علىّ بن أبى طالب !

فقبل ابن ملجم ، وضم إليه رجلا آخر اسمه شبيب بن بجرة ، وسار الشقيان حتى كمنا لعلىّ وهو خارج لصلاة الصبح فضربه شبيب بسيفه فوقع سيفه بعضادة الباب ، وضربه ابن ملجم فى قرنه فأصابه ، وهرب شبيب ، وأمسك الناس ابن ملجم ، فلما جاءوا به إلى علىّ قال له :

أى عدو الله ! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى ، قال : فما حملك على هذا ؟ قال : أشحذته أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر

خلقه ، فقال على كرم الله وجهه : ما أراك إلا مقتولا به ، وما أراك إلا من شر خلقه !

ونظر عليّ إلى من حوله وقال : النفس بالنفس ، إن أنا مِتُّ فاقتلوه كما قتلني ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي !

فسأله رجل : ياأمير المؤمنين ، إن فقدناك ـ ولا نفقدك ـ أنبايع الحسن ؟

فقال على : لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر !

وأوصى بنيه وصيته الأخيرة التي جمعت جملة من مبادئ الإسلام والإيمان ، فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أوصى به عليٌّ بن أبي طالب ، أوصى أنه لا يشهد إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم « إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

ثم أوصيك ياحسن وياجميع ولدى وأهلى بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، فإني سمعت أبا القاسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والسلام » انظروا إلى ذوى أرحامكم فصلوهم يهوِّن الله عليكم الحساب .

الله الله فى الأيتام ، فلا تعنوا أفواههم ، ولا يضيعن فى حضرتكم .

الله الله فى جيرانكم ، فإنهم وصية نبيكم ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، مازال يوصى بالجار حتى ظننا أنه سيورثه .

والله الله فى القرآن ، فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم .

والله الله فى الصلاة ، فإنها عمود دينكم .

والله الله فى بيت ربكم ، فلا تخلوه مابقيتم ، فإنه إن تُرك لا يناظر .

واللهَ واللهَ فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم .

واللهَ واللهَ فى الزكاة ، فإنها تطفئ غضب الرب .

واللهَ واللهَ فى ذمة نبيكم ، فلا يظلمن بين أظهركم .

واللهَ واللهَ فى أصحاب نبيكم ، فإن رسول الله أوصى بهم .

واللهَ واللهَ فى الفقراء والمساكين ، فأشركوهم فى معايشكم .

واللهَ واللهَ فيما ملكت أيمانكم .

الصلاةَ الصلاةَ ، لا تخافن فى الله لومة لائم ، يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم ، وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيولّى الأمر شراركم ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم .

وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق .

وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب .

حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ فيكم نبيكم ، أستودعكم الله ، « والسلام عليكم ورحمة الله » وأخذ يردد « لا إله إلا الله » حتى قبض .

وكأنّ الإمام عليًّا كرم الله وجهه شمَّ رائحة الموت قبل أن يلقى مصرعه ، وأحسَّ بقرب النهاية ودنوّ الأجل ، فقد قصَّ على ابنه الحسن رؤيا رآها فقال :

« أرقت الليلة- ثم ملكتنى عينى ، فسنح لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقلت له : ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد ، فقال لى : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيرا لى منهم ، وأبدلهم بى شرا لهم منى » .

وفى صبيحة اليوم الذى لقى فيه مصرعه أيقظه ابن التياح عند الفجر وهو مضطجع متثاقل ، ثم عاد وأيقظه مرة ثانية وثالثة ، فقام على يمشى ويقول :

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت آتيكا
ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بواديكا

فلما بلغ الباب شدَّ عليه ابن ملجم فضربه .

رحم الله عليا ، كان كما وصفه بعض أتباعه فى مجلس من مجالس معاوية ، فقال فى وصفه :

كان والله عظيم المدى ، شديد القوى ، يقول عدلا ، ويحكم فصلا ، تتفجر الحكمة من جوانبه ، والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهوتها ، ويأنس بالليل ووحشته .

وكان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يحاسب نفسه إذا خلا ، ويقلب كفيه على ما مضى ، ويعجبه من اللباس القصير ، ومن المعاش الخشن ، وكان فينا كأحدنا ، يعظم أهل الدين ، ويتحبب إلى المساكين .

لا يخاف القوىّ من ظلمه ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

أقسم ، لقد رأيته ليلة ، وقد مثل فى محرابه ، وأرخى الليل سرباله ، وغارت نجومه ، ودموعه تتحدر على لحيته ، ويتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه وهو يقول : يادنيا غرّى غيرى ! أإلىَّ تعرضت ؟ ! أم إلىَّ أقبلتِ ؟ ! لا حان حينك ، فقد طلقتك ثلاثا لا رجعة لى فيك ! ! » .

رحم الله عليا ، لقد طلب الدين بأسباب الدين ، فكان له ما أراد ، وسقط شهيدا فى حومة الجهاد ، وطلب غيره الدنيا بأسباب الدنيا فكان لهم ما أرادوا . لقد فنى ما أراده معاوية ، وبقى ما أراده

عليّ ، ولن تسقط قيم الحق والخير مادام لها على الدنيا أنصار وأشياع يفدونها بمهجهم وأرواحهم ! !

* * *

وفـاة جعفـر بن أبي طـالب

جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وممن هاجر الهجرتين ، وكان زعيم وفد المسلمين إلى النجاشى ملك الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة بعد أن هاجر إليها الرسول ، فوافى المسلمين على خيبر حين أخذها ، وفرح النبى بمقدمه ، ومكث بالمدينة أربعة وأربعين شهراً ، ثم أمَّره الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جيش غزوة مؤتة بناحية الكرك من بلاد الشام ، فاستشهد فى هذه الغزوة ، وكان يقتحم الصفوف ويرتجز :

ياحبذا الجنة واقترابها
طيبة وباردة شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة أنسابها
علىّ إذ لاقيتها ضرابها

روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه رأى جعفرا مضرجة قوادمه بالدماء يطير فى الجنة » وفى حديث رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « رأيت جعفرا له جناحان فى الجنة » ولهذا لقب بجعفر الطيار .

وفـاة بـلال بن ربـاح

بلال بن رباح مؤذن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، من السابقين الأولين فى الإسلام ، كان رقيقا من الحبشة ، وحين دخل فى الإسلام ناله من المشركين ومن سيده أمية بن خلف أذى كثير ، حتى اشتراه أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وأعتقه .

كان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره ، فى بطحاء مكة ، ويضع الحجر الثقيل على صدره ، ثم يقول له : هكذا حتى تموت أو تكفرَ بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فكان يحتمل هذا البلاء ، ويهتف من أعماق قلبه العامر بالإيمان : أحد ، أحد .

وهو أول من أذَّن على سقف الكعبة ، وشهد مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ المواقع كلها .

ولما لحق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الأعلى أتى أبا بكر فاستأذنه فى المسير إلى الشام ، فأذن له ، ولم يزل مقيما بها حتى مات سنة ٢٠ هـ .

ولما قدم عمر الشام بعد فتحها التقى به ، وأمره أن يؤذن ـ وكان لا يؤذن بعد وفاة النبى ـ فأذَّن ، فبكى عمر وبكى المسلمون .

ولما حضرته الوفاة قالت امرأته : واحزناه ! فقال بلال : بل واطرباه ! غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه !

* * *

وفـاة خـالد بن الوليـد

خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى بطل الإسلام وسيف الله المسلول .

أسلم سنة ثمان من الهجرة ، حارب المرتدين ، وقتل مسيلمة الكذاب ، وهزم طليحة الأسدى .

وافتتح عين التمر وسائر بلاد الشام ، وحمى جيش المسلمين يوم مؤتة بعد استشهاد زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، فتمكن من إنقاذ الجيش والعودة به إلى المدينة ، فلقبه الرسول سيف الله .

ووجهه أبو بكر للقتال بالعراق ، فصالح أهل الحيرة ، وفتح السواد ، ثم أرسل أبو بكر إلى العراق المثنى بن حارثة ، وسيَّر خالدا إلى الشام ، فاخترق بادية السماوة فى أقل من ثلاثة أسابيع ، وانضم إلى الجيوش التى كانت تحارب بالشام ، فافتتح بصرى ودمشق ، وانتصر على الروم فى معركة « اليرموك » .

وفى قمة هذا الانتصار توفى أبو بكر وخلفه عمر بن الخطاب ، فعزل خالدا عن إمارة الجيش ، وولى أبا عبيدة بن الجراح ، فأذعن خالد

لأمر الخليفة ، وعاد جنديا عاديا بالجيش تحت إمرة أبي عبيدة .

وتوفى خالد بحمص سنة ٢١ هـ ، وكان له بالشام عدد كثير من الولد ، فمات فى الطاعون منهم أربعون ولدا .

قال لما حضرته الوفاة : قد لقيت كذا وكذا زحفا ، فما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء ! !

* * *

وفـاة سـلـمـان الـفـارسـى

سلمان الفارسى من السابقين الأولين فى الإسلام ، قيل : إنه من فارس ، من رامهرمز ، وقيل : من اصفهان ، لم يشهد بدرا ولا أحدا ، لأنه كان حينئذ عبدا ، وأول غزوة غزاها هى غزوة الأحزاب التى سميت أيضا غزوة الخندق ، لأن سلمان أشار فيها على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحفر الخندق يوم أحاطت قريش بالمدينة .

وعُمّر سليمان عمرا طويلا ، ومات فى أواخر خلافة عمر أو أوائل خلافة عثمان ، وكانت وفاته بالمدائن .

ولما حضرته الوفاة بكى ، فقيل له : مايبكيك ؟ قال : ما أبكى جزعا على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب ، وأخشى ألا نكون قد فعلنا !

قالوا : ولما مات نظروا فى جميع ماترك ، فإذا قيمته بضعة عشر درهما !

* * *

وفـاة أبى ذرّ

كان لأبي ذرّ الغفارى رأى معين فى أموال الأغنياء التى تزيد عن حاجتهم ويكنزونها مما دعا فى آخر الأمر أن ينفيه عثمان بن عفان إلى الرَّبَذَة وهى صحراء بين مكة والمدينة .

فلما حضرته الوفاة وحيدا منقطعا بكت امرأته ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : ليس لنا ثوب يسعُك كفنا ، فقال لها : لا تبك ، فقد سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : ليموتن رجل منكم بفلاة تشهده عصابة من المؤمنين ، ولم يبق غيرى ، وقد أصبحت بالفلاة أموت ، فراقبى الطريق ، فإنك سترين ما أقول .

فبينما هى كذلك ، إذ هى بالقوم تخدُّ بهم رواحلهم كأنهم الرخم ، فأقبلوا حتى وقفوا عليها فقالوا : مالك ؟ فقالت : رجل من المسلمين تكفنونه وتؤجرون فيه ، قالوا : ومن هو؟ قالت : أبو ذرّ ، فلما ابتدروه قال لهم : أنشدكم الله ، ألا يكفننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا ، ولو أن ثوبى يسعنى لم أكفن إلا فيه ! » .

وفى خبر آخر ، أنه لما أصابه قدره لم يكن معه إلا امرأته وغلامه ، فأوصاهما أن اغسلانى وكفنانى وضعانى على قارعة الطريق ، فأول

ركب يمرُّ بكم قولوا : هذا أبو ذرّ فأعينونا عليه ، فوضعاه كما قال .

وأقبل ابن مسعود فى رهط من العراق عُمَّارًا ـ قاصدين العمرة ـ فلم يُرعهم إلا به ، قد كادت الإبل أن تطأه ، فقام الغلام فقال : هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فاستهلَّ عبد الله بن مسعود يبكى ويقول : صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ! » .

ثم نزلوا فوارَوْهُ التراب .

* * *

وفـاة معـاذ بن جـبل

معاذ بن جبل ، صحابي جليل من قبيلة الخزرج ، شهد بدرا وهو ابن عشرين سنة ، أو إحدى وعشرين ، ومات فى الثامنة والثلاثين سنة ١٨ هـ .

لما حضرته الوفاة قال :

اللهم إنى قد كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها ، لجرى الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر » .

ولما اشتد به النزع ، ونزع نزعا لم ينزعه أحد ، كان كلما أفاق من غمرة ، فتح طرفه ثم قال :

رب ، ما أخنقنى خنقك ، فوعزتك إنك تعلم أن قلبى يحبك !

* * *

وفـاة معـاوية بن أبي سـفيـان

حين حضرت الوفاة معاوية وجد ضميره مثقلا بأشياء عبرت عنها كلماته التى قالها فى مرضه الذى توفى فيه ، منها هذا الملك وهذا السلطان الذى جاهد عليه حتى انتزعه انتزاعا ، ومنها قلقه على ابنه يزيد ، وإن كان قد انتزع له البيعة قبل أن يموت ، فيوجه إليه هذه الوصية التى يقول فيها :

يابنى ، إنى قد كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك الأمور ، وذَلَّلتُ لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد ، فانظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك ، أكرِمْ من قدم عليك منهم ، وتعهدْ من غاب .

وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فإن عزل عامل أيسر من أن يُشهر عليك مائة ألف سيف .

وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك (أى موضع سرك) فإن رابك من عدوك شىء فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم : فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم .

وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمر (الخلافة) غير

نفر من قريش ، الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر .

فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة ، فإذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين بن على فإنه رجل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه ، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحما ماسَّة وحقاً عظيما ، وقرابة من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأما الثعلب الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك ، وظفرت به ، فقطعه إرباً إرباً ، واحقن دماء قومك ما استطعت » .

هذه وصية معاوية لابنه يزيد ، وصية سياسية ، تتجلى فيها حنكته ومقدرته على سبر أغوار النفوس ، وحرصه على هذا السلطان الذى أشَّبه ، واقترف فى سبيله ما اقترف .

ولهذا ، حينما دخل عليه سعد بن أبى وقاص بعد أن استقرت له الأمور فسلَّم عليه بسلام الملك ولم يسلّم عليه بسلام الخلافة ، فقال له معاوية : ما كان عليك ياأبا إسحق لو قلت : أمير المؤمنين ! والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به ! !.

وكان معاوية وعمرو بن العاص يتصارحان حينما يتناجيان ، فيقول عمرو بن العاص لمعاوية : أترى أننا خالفنا عليًّا لفضل منا عليه ؟ !

لا والله ! إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها ! وأيم الله لتقطعن لى قطعة من دنياك أو لأنا بذنك ! » .

وقطع له معاوية قطعة من الدنيا فأعطاه مصر طعمة له ، ويقول معاوية فى بعض أحاديثه : إن أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه ، وعمر عالجها وعالجته ، وعثمان نال منها ونالت منه ، أما أنا فقد تضجعتها ظهرا لبطن ، وانقطعت عليها وانقطعت إلىّ » .

وكان أشد ما يألم له معاوية فى مرضه ويخشاه ، شماتة الأعداء ، فيلجأ إلى استعمال الأصباغ والمساحيق والدهانات ليبدو أمام عُوَّاده فى صحة وعافية ، وبخاصة حينما يعلم أن الناس يرجفون بموته ، فيقول لأهله : احشوا عينى إثمدا (كحلا) ، وأوسعوا رأسى دهنا ، ففعلوا ، وبرَّقوا وجهه بالدهن ، ثم مهَّدوا له فجلس ، وقال : أسندونى ، ثم قال : ائذنوا للناس فليسلموا قياما ، ولا يجلس أحد ، فجعل الرجل يدخل فيسلم قائما فيراه مكتحلا مدَّهنا فيقول : يقول الناس لمآبه وهو أصح الناس ! وحينما يخرج الناس من عنده يتمثل معاوية بقول القائل :

وتجلـدى لـلشـامـتين أريهـموا
أنى لريب الدهر لا أتضعضعُ
وإذا المنـيـة أنشبت أظـفـارهـا
ألـفـيت كـل تميـمـة لا تـنـفـعُ

وحينما علم أن قوما يشمتون به فى موته قال :

فهل من خالد إما هلكنا
وهل بالموت ـ ياللناس ـ من عارِ

ودخل الحمام فى بدء علته ، فرأى نحول جسمه ، فبكى لفنائه وقال :

أرى الليالى أسرعت فى نقضي
أخذْن بعضى وتركْن بعضى
حنيْن طولى وحنيْن عرضى
وأقعدننى من بعد طول نهضى

ويخاطب ابنتيه وهما تقلبانه فيقول لهما :

تقلبان حوَّلا قلَّبا ، جمع لكما المال من شُبّ إلى دُبّ (يعنى من لدن كان شابا إلى أن صار شيخا يدب دبيبا) إن لم يدخل النار ، ويقول :

لقد سعيت لكم من سعى ذى نصب
وقد كفيتكم التطواف والرِّحَلا

وفى لحظات الصدق مع النفس يتذكر الموت وما وراء الموت فيقول :

هو الموت لامنجى من الموت والذى
تحاذر بعد الموت أدهى وأفظعُ

ويبتهل إلى الله أن يغفر له ويتجاوز عنه :

إن تناقش يكن نقاشك يارب
عذاباً ، لا طوق لى بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب صفوح
عن مسىءٍ ذنوبه كالترابِ

وتصل لحظة الصدق مع النفس إلى الذروة تمشيا مع ازدياد المرض واليقين من الموت ، فيتمنّى لو لم يكن قد ذاق لذة الملك ونشوة السلطة ، وعاش من أهل الكفاف والعفاف كما عاش أهل التقى والصلاح :

فياليتنى لم أُعْنَ بالملك ساعة
ولم أك فى اللذات أعشى النواظر
وكنت كذى طمرين عاش ببلغة
من الدار حتى زار أهل المقابرِ

ثم ينحى على نفسه باللائمة على هذا النحو :

تذكَّرْ ربك يامعاوية بعد الهرم والانحطاط ! ألا كان هذا وغصن الشباب أخضر ريان ؟ ! » .

ثم ينخرط فى البكاء سائلاً ربه أن يرحمه ، ويقيل عثرته :

« يارب ، ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى ، اللهم أقِل العثرة ، واغفر الزلة ، وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ، ولم يثق بأحدٍ سواك » .

قالوا : وأوصى معاوية بنصف ماله أن يُردَّ إلى بيت المال ، وكأنه أراد أن يطيب له النصف الباقى ، فإن عمر قد قاسم عماله .

واستعدَّ لما هو قادم عليه فقال ليزيد :

« ويايزيد ، إذا وفى أجلى ، فولِّ غسلى رجلا لبيبا ، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل ، وليجهر بالتكبير ، ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وقراضة شعره وأظفاره ، فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى ، واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ، فإذا أدرجتمونى فى جديدى ، ووضعتمونى فى حفرتى ، فخلُّوا معاوية وأرحم الراحمين » .

* * *

وفاة عمرو بن العاص

فاتح مصر وواليها أيام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، وعزل عنها فى عهد عثمان ، ولكن معاوية بن أبي سفيان أعاده إليها حين صفت له الخلافة ، وكان لعمرو يد طولى فى توطيد الأمر لمعاوية ، وبخاصة فى قضية التحكيم .

ومن أعماله بمصر أنه أسس مدينة الفسطاط ، وبنى بها جامعه المعروف ، وهو أقدم جامع فى افريقيا ، وشيد مقياسا على النيل ، ووصل النيل بالبحر الأحمر بترعة سماها خليج أمير المؤمنين .

وتوفى فى يوم عيد الفطر أو قبله بيوم .

ولما حضرته الوفاة بكى ، فقال له ابنه : مايبكيك ؟ أما بشَّرك رسول الله بكذا ؟ فقال عمرو : إن أفضل مايُعدُّ عليَّ شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ولكني كنت على أطباق ثلاث ، قد رأيتني وما أحد من الناس أبغضَ إليَّ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا أحبَّ من أن أتمكن فأقتله ، فلو متُّ على تلك الطبقة لكنت من أهل النار ، فلما جعل الإسلام فى قلبي أتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبايعه ، فقلت : ابسط يدك لأبايعك ،

فبسط يده ، ثم إنى قبضت يدى ، فقال : مالك ياعمرو؟ قلت : أردت أن أشترط ، فقال : ماذا تشترط ؟ فقلت : أن تغفر لى ماتقدم ، فقال : أما علمت ياعمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ فبايعته ، فما كان أحد أجلَّ فى عينى من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولو سئلت أن أنعته ما طقت ، لأنى لم أكن أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له . فلو متّ على تلك الطبقة لرجوت أن أكون من أهل الجنة . ثم ولينا أشياء بعد فلست أدرى ما حالى فيها !!

وأوصى بنيه فقال : إن أنا متّ ، فإذا دفنتمونى فى قبرى ، فخدّوا لى الأرض خدًّا ، وشنّوا علىَّ التراب شنًّا ، فليس جنبى الأيمن أولى بالتراب من الأيسر ، ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجرا ، فإذا فرغتم من دفنى فأقيموا عند قبرى قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها ، فإنى أستأنس بكم حتى أعلم ما أراجع به رسل ربى » .

واتجه عمرو إلى بنيه فقال : يابنى ، ماتغنون عنى من أمر الله شيئا ، فقالوا : ياأبت ، إنه الموت ، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا ، فقال : أسندونى ، فاستقبل القبلة وقال :

اللهم إنك أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائذ بك ، فإن تعفُ فأنت أهل للعفو، وإن تعاقب فبما قدمت يداى، اللهم لا قوى فأنتصر ، ولا برىء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر ،

أستغفرك وأتوب إليك ، ولكن لا إله إلا الله » .

وظل يردد الشهادة حتى مات .

وقيل : إنه لما حضرته الوفاة قال له بعض بنيه : ياأبتاه ، قد كنت تقول : من لى برجل عاقل لبيب يصف لى مايجد عند نزول الموت به ؟ وهاأنت ذا العاقل اللبيب ! فقال عمرو : يابنى ، والله كأن السماء قد اطبقت على الأرض ، وكأنى أتنفس من سم إبرة ، وكأن غصن شوك يجذب من قدمى إلى رأسى ، ثم أنشد :

ليتنى كنت قبل ما بدا لى
في رءوس الجبال أرعى الوعولا

قالوا : ونظر إلى صناديق له عند وفاته فقال : من يأخذها بما فيها ، ليته كان بعرا !!! » .

* * *

وفاة الحسين بن عليّ

وهذه صفحة أخرى دامية حزينة يرتطم فيها الحق بالباطل ، وينتصر الباطل انتصارا دنيويا مؤقتا ، وهزيمته فى انتصاره ، إنها صفحة وضاءة مشرقة ثرية بقيم العزة والنبل والكرامة والشرف والحرية ، وإن كانت مضمخة بالدماء !

صفحة شهيد كربلاء الإمام الحسين بن على بن أبى طالب .

قال المؤرخون : بعد أن آلت الخلافة إلى يزيد بن معاوية أرسل إلى الوليد بن عتبة والى المدينة أن يأخذ البيعة إلى أهلها ، فأرسل إلى الحسين بنْ على ، وإلى عبد الله بن الزبير ليلا فأتى بهما ، فقال لهما : بايعا ، فقالا : مثلنا لا يبايع سرا ، ولكن على رءوس الأشهاد إذا أصبحنا ، فرجعا إلى بيوتهما ، وخرجا من ليلتهما إلى مكة ، فأقام الحسين بمكة شعبان ورمضان وذا القعدة ، وخرج يوم التروية يريد الكوفة ، فبعث عبيد الله بن زياد خيلا لمقتل الحسين ، وأمَّر عليهم عمرو بن سعد بن أبى وقاص بكربلاء .

قالوا : وكتب عبيد الله بن زياد إلى الحر بن يزيد الرياحى أن جعجع بالحسين (يعنى احبسه وضيق عليه) وأمدَّه بعمرو بن سعد فى أربعة آلاف ، ثم توالى المدد ووعده بمدينة الرىّ ، فضيقوا على

الحسين ، وسدُّوا عليه المنافذ حتى حصروه بكربلاء .

الحسين بن عليّ وابن فاطمة الزهراء يبايع بالإكراه يزيد بن معاوية الفتى الطائش العربيد ، إن هذا لا يكون ! لا بديل من الموت !

لم يكن مع الحسين سوى ٧٢ رجلا ، منهم ٣٢ فارسا ، وأربعون راجلا ، وأهله من النساء والأطفال .

وقام الحسين فى أصحابه خطيبا يحمد الله ويثنى عليه ويقول :

قد نزل من الأمر ما ترون ، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء .

ألا حسبى من عيش كالمرعى الوبيل ! ألا ترون الحق لا يعمل به ؟ والباطل لا يتناهى عنه ؟ وعرض عليهم أن يتركوه لمصيره فأبوا .

وكانت مذبحة مهدوا لها بحرمانه من الماء ، هاهوذا يشحذ سيفه ليلة المعركة ويقول :

يادهر أف لك من خليلْ
كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل
وكل حى سالك السبيل

وتسمعه أخته زينب فلا تملك نفسها أن تنادى : واثكلاه ! فيأخذ الحسين فى تعزيتها وتسليتها ويقول لها :

« اتقى الله ، وتعزى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون ، وأهل السماء لا يبقون ، وأن كل شىء هالك إلا وجه الله ، أبى خير منى ، وأمى خير منى ، وأخى خير منى ، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة » .

وبات ليلته يصلى ويستغفر ويتضرع ويدعو ، وفى صباح يوم الجمعة أو يوم السبت العاشر من المحرم تقابل جيش يزيد الكثير العدد والعدة مع جماعة الحسين القليلة العدد فقاتلوا عنه ، واستبسلوا فى القتال .

ولجأ جيش يزيد إلى تقويض الأخبية التى كان يأوى إليها النساء والأطفال ، وأضرموا فيها النار ، وتكاثرت السيوف والرماح على الحسين بعد أن استشهد أصحابه فى الذود عنه ، وتوالت عليه الضربات والطعنات حتى أحصوا جراحاته بعد موته فألفوها ثلاثا وثلاثين طعنة بالرمح ، وأربعا وثلاثين ضربة بالسيف ، واختلفوا فيمن باشر قتله ، قيل : سنان بن أبى سنان النخعى جد شريك القاضى ، وقيل : الذى قتله شمر بن ذى الجوشن ، وأمير الجيش عمرو بن سعد ، وأجهز عليه خولى بن يزيد الأصبحى الذى حزَّ رأسه وأتى به ابن زياد وقال :

أوقر ركابي فضة وذهبا إني قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

ثم ندبوا عشرة فرسان فوطئوا جثته بخيولهم ورضوا بطنه وصدره قالوا : وساق القوم حرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيهم عليّ بن الحسين وكان مريضا ، وزينب بنت علي ، وبنت فاطمة الزهراء ، وأختها أم كلثوم وفاطمة وسكينة بنت الحسين.

قالوا : وأتى برأس الحسين إلى عبيد الله بن زياد ، فجعل في طست ، فجعل ينكته بقضيب في يده ، ثم حمل إلى يزيد بدمشق فأمر بالرأس أن تصلب :

جاءوا برأسك ياابن بنت محمد
متزملا بدمائه تزميلا
وكأنما بك ياابن بنت محمد
قتلوا جهارا عامدين رسولا
قتلوك عطشانا ولم يترقبوا
في قتلك التنزيل والتأويلا
ويكبرون بأن قتلت وإنما
قتلوا بك التكبير والتهليلا

ولقد كان انتقام الله عاجلا في الدنيا قبل عذاب الآخرة ، فلقي كل من اشترك في دمه الطاهر مصيره الفاجع على يد المختار بن عبيد الثقفي

وحركة التوابين التي ثأرت لدم الحسين ، فقتل شمر بن ذى الجوشن شر قتلة ، وألقيت جثته للكلاب ، وقتل عبيد الله بن زياد ، وأتى برأسه إلى المختار فشوهدت حية دخلت فى فمه وخرجت من أنفه ، وضرب الله من سلبوه بالبرص . ذهب قتلة الحسين إلى مزبلة التاريخ ، وبقى الحسين خالدا منتصرا .

ذهبت تلك القمامات البشرية التى تمثل الخسة والنذالة والجبن ، وبقى الحسين نبراسا للتضحية والفداء والشجاعة والحرية ، فى أغر مكانة وأعلى مقام .

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرَّجة يُدَقُّ

* * *

وفاة عبد الملك بن مروان

عبد الملك بن مروان من أبرز خلفاء بنى أمية ، ويسمى أبا الملوك فقد خلفه على الملك أولاده الأربعة ، ووصلت دمشق فى عهده إلى أوج قوتها وعظمتها ، وصبغت الإدارة بالصبغة القومية ، وسك أول دار للنقود العربية ، وتطور نظام البريد ، وأعاد للدولة وحدتها وكان أحيانا يقود الجيوش بنفسه ، وكان أديبا يتذوق الشعر والأدب ، وتروى له كتب التاريخ والأدب طرائف كثيرة .

صنع له أحد زعماء العراق مائدة فى قصر الخورنق ، فأشار عليه بأن تكون المأدبة عامة ، وبعد أن فرغوا من الطعام تجول فى أنحاء هذا القصر الأثرى ، وأخذ يردد :

وكل جديد ياأميم إلى البلى
وكل امرئ يوما يصير إلى كانْ

ثم أتى المجلس فاستلقى وأنشد :

اعمل على مهل فإنك ميت
واكدح لنفسك أيها الإنسانْ

فكأن ماقد كان لم يك إذ مضى
وكأن ماهو كائن قد كانْ

ولشفافيته أحسَّ بدنو أجله حين مرض فى شهر رمضان سنة ٨٦ هـ فقال : أَخاف الموت فى شهر رمضان ، فيه ولدت ، وفيه فطمت ، وفيه جمعت القرآن (يعنى حفظه) وفيه بايع الناس .

وقد تحقق ظنه إلى حد كبير إذ وافته منيته فى منتصف شهر شوال . وفى مرض موته أوصى بنيه فقال :

أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية : وجُنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل فى المعاد ، وهى أحصن كهف .

وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميع الأمور .

وإياكم والبغى والتحاسد ، فبهما هلك الملوك الماضون ، وذووا العز المكين .

يابنى ، أخوكم مسلمة نابكم الذى تفرُّون عنه ، ومِجنُّكم الذى تستجنون به ، أصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحجاج ، فإنه الذى وطّأ لكم هذا الأمر .

« كونوا أولادًا أبرارًا ، وفى الحروب أحرارًا ، وللمعروف منارًا ، وعليكم السلام » .

ونظر إلى الوليد وهو يبكى عند رأسه فقال : ياهذا ، أحنينًا كحنين الحمامة ؟ ! إذا أنامِتٌّ فشمّر واتَّزر ، والبس جلد نمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه » ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا فقال :

« إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإنا كنا منك فى غرور ! » ومن فطنة عبد الملك أن ابنه الوليد دخل عليه فى مرضه ، فبكى وقال : كيف أصبح أمير المؤمنين؟ فقال عبد الملك :

ومستخبر عنا يريد بنا الردى
ومستعبرات والعيون سواجعُ

ودخل عليه مرة يستخبره عن حاله ، فقال عبد الملك :

كم عائد رجلا وليس يعوده
إلا لينظر هل يراه يموتُ

فهل كان الوليد يستبطئ حياة والده تلهفا على عرش الحكم والسلطان ؟ قاتل الله الدنيا التى تغرى الولد بأبيه !

ورووا أنه لما اشتد عليه المرض دعوا له الأطباء فقالوا : إن شرب الماء مات ، فاشتد عليه العطش فقال : ياوليد ، اسقنى ماء ، فقال له : لا أُعينُ عليك ، فقال لابنته فاطمة : اسقينى ماء ، فمنعها الوليد ، فقال : لتدعنَّها أو لأخلعنَّك ، فقال : لم يبق بعد هذا شىء ، فسقته ، فمات .

قالوا : ولما حضرته الوفاة نظر إلى غسَّال بجانب دمشق ، يلوى ثوبا بيده ، ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك :

ليتنى كنت غسَّالاً آكل من كسب يدى يوما بيوم ، لم أَلِ من هذا الأمر شيئاً ! » .

قالوا : فبلغ ذلك أبا حازم فقال :

الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون مانحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمنَّ ماهم فيه !! » .

ودخل عليه شيوخ بنى أمية يعودونه ، فقالوا له : كيف تجدك ياأمير المؤمنين؟ قال : أجدنى كما قال الله عز وجل :

« وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ » .

قالوا : وكان هذا آخر كلام سمع منه .

* * *

وفـاة الحجَّـاج الثقفى

الحجاج بن يوسف الثقفى ، من ولاة الدولة الأموية ، اشتهر بالشدة والقسوة .

وكان فى مبدأ أمره معلم صبيان بالطائف ، ثم ولى الشرطة لروح بن زنباع ، ثم وليها للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وكان قائد الجيش الذى هزم عبد الله بن الزبير وضرب الكعبة بالمناجيق ، فولاه الخليفة إمارة الحجاز واليمن واليمامة ، ثم ولاه العراق فأخمد الفتن ، واستخدم العنف والقسوة حتى كرهه الكثيرون لكثرة ما أراق من الدماء ، حتى وصفه بعض الكتاب المعاصرين بنيرون التاريخ العربى !

وكان خطيبا فصيحا ، وخطبه فى الكوفة والبصرة معروفة محفوظة ، سمعته امرأة يقول : والله لأحصدنكم حصدا ، فقالت له : أنت تحصد ، والله يزرع !

وكان الحسن البصرى يقول إن الحجاج سيئة من سيئات عبد الملك بن مروان .

قالوا : ولما حضرته الوفاة قال : اللهم اغفرلى ، فإن الناس يقولون : إنك لن تغفر لى !

وكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ، ويغبطه عليها .

ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها ؟ ! قيل : نعم ، قال : عسى !!

* * *

وفاة عمر بن عبد العزيز

لدينه وصلاحه وعدله وتقواه وورعه وزهده وعفته ، عدَّه الإمام الشافعي والمسلمون من بعده خامس الخلفاء الراشدين ، فهو معجزة الإسلام وحفيد عمر بن الخطاب من قبل أمه ليلى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

تولى إمارة المدينة وهو شاب من قبل عمه الوليد ، فكانت إمارته خيرا وبركة وراحة وأمنا وسكينة .

وجاءته الخلافة منقادة ، فتبدل شخصا آخر ، وترك عيش الرفه والنعيم ، وهجر الدور والقصور ، وجلس للناس على حصيرة فى بيت مبنى باللبن (الطوب الأخضر) وأكل العدس والفول والبصل ، وشارك المسلمين بأساءهم وضراءهم . كانت الدنيا قبله ، دنيا يأكل بعضها بعضا ، كما يقول هو بصدق وحق ، فتحول المجتمع فى عهده القصير (٢٧ شهرا) إلى مجتمع إسلامى يسوده العدل والإخاء والمحبة ، حتى أن الأغنياء كانوا لا يجدون من يأخذ الزكاة . والناس على دين حكامهم ورؤسائهم !

قالوا : كان الوليد صاحب بناء وعمران ، فكان الناس يلتقون فى زمانه ، فيسأل بعضهم بعضا عن البناء والعمران ، وكان سليمان

صاحب طعام وزواج ، فكان الناس فى زمنه يسأل بعضهم بعضا عن الطعام والزواج والطلاق . وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الخير والصيام والصلاة !

كان يسأل دائما عن حال الناس ، فيقول له خادمه وهو يسحب البرذون ليركبه ، كل الناس فى راحة ياأمير المؤمنين إلا أنت وأنا وهذا البرذون ! أية رعاية للمسئولية فوق هذه الرعاية ؟ وأى شعور بالتبعة أسمى من هذا الشعور ؟ !

من موقف الموت كانت نظرته للحياة ، وكان دائما يردد : آه لو رأيتم الميت بعد ثلاث ! !

معذرة ياابن عبد العزيز ! ماجئتك مؤرخا لسيرتك ، بل عائدا أعودك على فراش مرضك !

لقد خوفوك عاقبة سياستك ، وقد جردت بنى أمية من أموالهم التى أخذوها بغيا وظلما ، بعد أن بدأت بنفسك فتنازلت عن كل ماتملك ، خوفوك عاقبة ذلك ، فلم تخف ، ودفعت حياتك ثمنا لدينك وتقواك !

ولما قيل لك : ألا تخشى غوائل قومك ؟ قلت : أبغير الله تخوفونى ؟ ! أبيوم سوى يوم القيامة تخوفونى ؟ ! كل خوف أتقيه سوى ذلك لاوقانى الله منه ! !

قالوا : ولما ثقل عليه المرض دعى له بطبيب ، فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم ، ولا آمن عليه الموت ، فرفع عمر بصره ، وقال للطبيب : ولا تأمن الموت أيضاً على من لم يسق السم !

قال الطبيب : هل أحسست بذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى ، قال : فتعالج ياأمير المؤمنين ، فإنى أخاف أن تذهب نفسك ، فقال عمر :

ربى خير مذهوب إليه ، والله لو علمت أن شفائى عند شحمة أذنى ما رفعت يدى إلى أذنى فتناولته ! اللهم خِرْ لعمر فى لقائك !

ودخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال له : ياأمير المؤمنين ، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولابد من شىء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلىَّ ، أو إلى نظرائى من أهل بيتك ، لكفيتك مئونتهم إن شاء الله ! فقال : أجلسونى ، فأجلسوه ، فقال :

الحمد لله ، أبا لله تخوفنى يامسلمة ؟ أما ما ذكرت من أنى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال وتركتهم عالة ، فإنى لم أمنعهم حقا لهم ، ولم أكن لأعطيهم حقا لغيرهم .

وأما ما سألتنى من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتى ، فإن وصيتى ووليّى فيهم الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين ، رجل اتقى الله فسيجعل الله له من أمره

يسرا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيَّر وفجر . فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله !

ادعوا لى بَنىَّ ، فأتوا بهم إليه ، وكانوا إذ ذاك بضعة عشر ذكرا ، فجعل يصعّد بصره فيهم ويصوّبه ، حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، ثم قال : بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم !

يابَنىّ ، إنى ميَّلت رأيى بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، وبين أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار .

قوموا يابَنىّ ، عصمكم الله ورزقكم !

قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر !

ولما حضرته الوفاة بكى ، فقيل له : مايبكيك ؟ أبشر ، فقد أحيا الله بك سننا ، وأظهر الله بك عدلا ، فبكى وقال : أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق ؟ فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى ألا تقوم بحجتها بين يدى الله إلا أن يلقنها الله حجتها ، فكيف بكثير مما ضيعنا ؟ !

وجلست إليه امرأته فاطمة تواسيه وترعاه ، فقال لها : أجلسونى ، فأجلسوه ، فأخذ يناجى ربه ويقول : أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت ، لا إله إلا الله .

ثم رفع رأسه فأحدَّ النظر ، فقالوا له : إنك لتنظر نظرا شديدا ، فقال : إنى لأرى خضرة ماهم بإنس ولا جن !

الله أكبر ، إنها بعثة شرف من السماء على حد تعبير الأستاذ خالد محمد خالد .

وكان عمر يدعو ويقول : اللهم أخفِ عنهم موتى ولو ساعة من نهار . قالت فاطمة زوجته :

واشتد عليه المرض ليلة فسهر وسهرنا معه ، فلما أصبحنا أمرت وصيفا له يقال له : مرثد ، فقلت له : يامرثد ، كن عند أمير المؤمنين ، فإن كانت له حاجة كنت قريبا منه ، ثم انطلقنا فضربنا برءوسنا لطول سهرنا ، فلما انفتح النهار استيقظت فتوجهت إليه ، فوجدت مرثدا خارجا من البيت نائما ، فأيقظته ، فقلت : يامرثد ، ما أخرجك ؟ قال : هو أخرجنى ، قال لى : يامرثد ، اخرج عنى ، فوالله إنى لأرى شيئا ماهو بالإنس ولا الجان ، فخرجت فسمعته يتلو هذه الآية :

« تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

فدخلت عليه فوجدته قد وجَّه نفسه ، وأغمض عينيه ، ورحل إلى جوار ربه .

وكان عمر قبل وفاته قد اشترى مكان قبره بدير سمعان ، فدفن فيه ، ورثاه بعضهم فقال :

أقول لما نعى الناعون لى عمرا
لا يبعدَنَّ قوامُ العدل والدينِ

قد غادر القوم باللحد الذى لحدوا
بدير سمعان قسطاس الموازين

* * *

وفــاة الإمــام الشــافعى

محمد بن إدريس ، ينتهى نسبه إلى المطلب أخى هاشم جد النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهو صاحب المذهب الفقهى المنسوب إليه .

أخذ عن الإمام مالك بالمدينة ، ثم لازم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، فأخذ عنه فقه العراق ، ثم اتخذ درسه بالبيت الحرام ، ثم رحل إلى بغداد ، وأخيراً رحل إلى مصر ، وتوفى بها ، وضريحه ومقامه معروف بالقاهرة . وهو واضع علم أصول الفقه ، ومن كتبه « الأم » و « الرسالة » وبنى مذهبه الفقهى على الكتاب والسنة والقياس والإجماع .

قال المزنى : دخلت على الشافعى رحمه الله فى مرضه الذى توفى فيه ، فقلت له : كيف أصبحت ياأبا عبد الله ؟ فقال :

أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقا ، ولسوء عملى ملاقيا ، ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدرى ، أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها ؟ ثم أنشأ يقول :

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي

جعلت رجائى نحو عفوك سلما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته

بعفوك ربي كان عفوك أعظما

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل

تجود وتعفو مِنَّة وتكرما

ولولاك لم يغو بإبليس عابد

فكيف وقد أغوى ضعيفك آدما

* * *

وفـاة هـارون الرشـــيد

كان ينظر إلى السحابة فى السماء فيخاطبها ويقول : أمطرى حيث شئت ، فسيأتينى ريعك !

ذلكم هو الخليفة هارون الرشيد ، أشهر الخلفاء العباسيين ، بل أشهر خلفاء المسلمين على الإطلاق ، ففى عصره بلغت الدولة الإسلامية من القوة واتساع الرقعة مدىً بعيداً ، وامتد جاهه ونفوذه بسلطانه .

يقال إنه رأى فى منامه وهو بالرقة كأنه جالس على سريره ، وإذا بذراع أو كف يعرفها بدت له ، وفى الكف تربة حمراء ، فقال له قائل يسمعه ولا يرى شخصه : هذه هى التربة التى تدفن فيها ، فقال له الرشيد : وأين هذه التربة ؟ قال : فى طوس ، وغابت اليد وانقطع الكلام .

ولما سار إلى خراسان انتابته العلة فى بعض الطريق حتى دخل طوس ، فذكر هذه الرؤيا ، فقال لخادمه مسرور : جئنى من تربة هذا المكان ، فمضى مسرور فأتى بتربة حمراء ، فقال الرشيد : هذه والله هى التربة التى رأيتها فى منامى ، وأقبل على البكاء والنحيب .

وفى طوس اشتد عليه المرض ، فأحضروا له طبيبا فارسيا ، فأمر أن يُعرض عليه ماؤه (بوله) مع مياه كثيرة لمرضى وأصحاء ، فجعل يستعرض القوارير ، حتى رأى قارورة الرشيد فقال : قولوا لصاحب هذا الماء يوصى ، فإنه قد انحلَّت قواه ، وتداعت بنيته ، فلما سمع الرشيد ما قال الطبيب أخذه اليأس ، وأنشأ يقول :

إن الطبيب بطبه ودوائه
لايستطيع دفاع نحْب قد أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذى
قد كان أبرأ مثله فيما مضى
مات المداوِى والمداوَى والذى
جلب الدواء وباعه ومن اشترى

قالوا : وبلغه أن الناس أرجفوا بموته ، فاستدعى حمارا وأمر أن يُحمل إليه ، فاسترخت فخذاه ، فقال : أنزلونى ، صدق المرجفون !

ودعا بأكفان فتخير منها ما أعجبه ، وأمر فشُقَّ له قبر أمام فراشه ، ثم اطلع فيه فقال : « ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه » .

ومات الرشيد من ليلته تلك .

* * *

وفـاة الخليفـة المأمـون

الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ، من أعظم خلفاء بنى العباس ، وفى عهده طفرت النهضة العلمية طفرة واسعة ، وكان يشجع حركة الترجمة من اللغات الفارسية واليونانية والسريانية والسنسكريتية ، فترجم فى عصره مؤلفات عديدة فى الرياضيات والفلك والطب والفلسفة .

وأسس المأمون بيت الحكمة ، وانحاز إلى جانب المعتزلة فى القول بخلق القرآن ، وظل مذهب المعتزلة هو المذهب الرسمى للدولة حتى ألغى فى عهد المتوكل .

وقد بلغت الدولة فى عهده أقصى قمة المجد والحضارة والازدهار .

ولما حضره الموت فرش رمادا واضطجع عليه ، وجعل يقول :

يامن لا يزول ملكه ، ارحم من قد زال ملكه !

* * *

وفاة عبد الرحمن الناصر

عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، أعظم خلفاء الدولة الأموية الثانية التى أسسها عبد الرحمن الداخل ببلاد الأندلس .

تولى إمارة قرطبة وعمره اثنان وعشرون عاما عقب وفاة جده الأمير عبد الله بن محمد ، فحول الإمارة الأندلسية إلى خلافة ، قضى على الثورات والفتن الداخلية ، ودخل فى صراع مع الامارات والدول المسيحية التى كانت تحيط به وأعاد بناء الدولة ، وكان محبا للعمران ، وكان عصره عصر ازدهار فى الحضارة الأندلسية ، بل إنه العصر الذهبى الذى بلغت فيه الحضارة الإسلامية أوج قوتها وعظمتها ، ومن آثاره المئذنة الشهيرة التى أضافها إلى جامع قرطبة ، وبناء المعاقل والحصون ، وبناء مدينة الزهراء .

وخطب وده الملوك ، وأعظم السفارات التى قدمت إليه بقرطبة سفارة امبراطور بيزنطة .

توفى فى عام ٣٥٠ هـ بعد حكم تجاوز نصف القرن قضاه فى جهاد متواصل ، وكانت وفاته فى رمضان بعد أن اشتدت به علته التى مات بها .

قالوا : ووجد بخطه تأريخ قال فيه :

أيام السرور التى صفت لى دون تكدير ، يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، فعُدَّت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوما !

ويعلق بعض المؤرخين على ذلك بقوله :

فاعجب أيها الغافل لهذه الدنيا ، وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الوفاء لأوليائها .

إن الخليفة الناصر مَلَكَ خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم يصف له من الدنيا إلا أربعة عشر يوما ! !

فسبحان ذى العزة العالية ! والمملكة الباقية ! تبارك اسمه ! وتعالى جده ! » .

* * *

تعقيب
الموت .. وما وراء الموت !

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :

« وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ » .

وقال تعالى : « فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ » .

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن الموت ، والموت مفارقة الروح للجسد ، فتشير الآيات الأولى ـ آيات سورة ق ـ إلى شدة الموت وكربته ، وقد عبَّرت عنها الآيات الكريمة بالسكرة . « وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ » شدته وكرباته .

« بالحق » متلبسة بالحق ، فالإنسان حين يحضره الموت يوقن به حين يراه رأى العين ، حقيقة واقعة ، لا مرية فيها ولا شك ، ولكن

إدراكه يأتى بعد فوات الأوان ، حيث لا تنفع توبة ، ولا يجدى ندم .

« ذلك » أى الموت .

« ما كنت منه تحيد » ما كنت تهرب منه ، وتنفر من ذكره ، وتبعد شبحه عن خاطرك .

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى هول القيامة والحشر والحساب ، « ونفخ فى الصور » للبعث والحساب .

« ذلك يوم الوعيد » هذا هو اليوم الذى توعد الله فيه العصاة والكفار بالعذاب .

« وجاءت كل نفس معها سائق » يسوقها سوقا إلى الحشر .

« وشهيد » يشهد على عملها فى الدنيا ، وهو الأيدى والأرجل وغيرها .

ويقال للكافر والعاصى « لقد كنت » فى الدنيا « فى غفلة عن هذا » يعنى عن الموت والبعث والحساب .

« فكشفنا عنك غطاءك » أزلنا غفلتك بما تبصره الآن .

« فبصرك اليوم حديد » حاد تدرك به ما أنكرته فى الدنيا ، فهذا هو الموقف الذى لم تحسب حسابه ، وهذه هى الآخرة التى لم تصدق بها .

وتصور الآيات الأخرى ـ آيات سورة الواقعة ـ الموقف الرهيب ، موقف الموت ، فى لمحة خاطفة ، حتى لنكاد نسمع حشرجة الروح وهى تفارق الجسد ، ونحسّ الكرب والضيق الذى يعانيه المحتضر ، ولكنا نقف ذاهلين لا نملك من الأمر شيئاً ، عاجزين أن نقدم له شيئا سوى الحسرة والأسى ، هنا تقف قدرة البشر ، وتنفرد قدرة الله بالأمر كله « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ » .

ولقد تعجب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يجود بروحه من شدة الموت وكربه ، فقال :

« سبحان الله ، إن للموت لسكرات ! »

ولهذا أوصانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نكثر من ذكر الموت ، هادم اللذات ، كما وصفه رسول الله .

وقال العلماء :

إن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه فى كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية ، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتى ضيق وسعة ، ونعمة ومحنة ، فإن كان فى حال ضيق ومحنة ، فذكر الموت يسهل عليه بعض ماهو فيه ، فإنه لا يدوم ، والموت أصعب منه . أو فى حال نعمة وسعة فذكر الموتَ

يمنعه من الاغترار بها ، والسكون إليها ، لقطعه عنها » .

وأما عن سكرة الموت وشدته فيقول الإمام الغزالى :

اعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها لا يعرفها إلا بالقياس إلى الآلام التى أدركها ، أو بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ماهم فيه .

فأما القياس الذى يشهد فهو أن كل عضو لا روح فيه لا يحسّ بالألم ، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح ، فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم ، فإن كان فى الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره ، فما أعظم ذلك الألم وما أشده !

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حلّ به الألم ، فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة .

أما إذا أصابه حرق ، فإن أثر الاحتراق يعظم ، لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار ، فتحسّه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم .

أما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذى مسَّه الحديد فقط ، فكان لذلك أثر الجرح دون ألم النار.

فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه ، فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق ، وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ، ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم !

فلا تسأل عن كربته وألمه ، حتى قالوا : إن الموت لأشدٌّ من ضرب بالسيوف ، ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح ، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ؟ !

أما لماذا لا يستغيث المحتضر ولا يصيح فيقول الغزالى :

فلأن الكرب قد بالغ فيه ، وتصاعد على قلبه ، وبلغ كل موضع منه ، فهدّ كل قوة ، وأضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة الاستغاثة .

وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه ولسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه .

أما العقل فقد غشيه وشوَّشه ، وأما اللسان فقد أبكمه ، وأما الأطراف فقد أضعفها ، ويودّ لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح

والاستغاثة ، ولكنه لا يقدر على ذلك ، فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خُوارا وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغيَّر لونه واربدَّ ، حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عضو على حياله ، فالألم ينتشر فى داخله وخارجه ، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه ، وتتقلَّص الشفتان ، ويتقلَّص اللسان إلى أصله ، وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما ، وتخضرُّ أنامله .

فلا تسلْ عن بدن يُجذب منه كل عرق من عروقه ، ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ؟ ! لا مَن عرق واحد ، وإنما من جميع العروق ؟ !

ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجيا ، فتبرد أولاً قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، ولكلُ عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره من الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة ، وتحيط به الحسرة والندامة .

هكذا يصف الغزالى سكرات الموت ، ونحن عنه فى غفلة ، وعن ذكره نعرض ونشمئز ، وننهمك فى حياتنا الدنيا ، وكأننا مخلدون فيها ، فتفكر أيها المغرور بالدنيا فى الموت وسكرته ، ومرارة كأسه ، وهدمه للذات ، وقطعه للأمنيات ، ففى الموت عبرة لمن اعتبر ، وفكرة لمن تفكر ، وفى خبر مروى عن رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ : « لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سمينا » .

وأدهى من الموت ما وراء الموت !

فملك الموت يأتى الكافر فى أقبح صورة ، وتخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان ، أما المؤمن فيراه على صورة حسنة ، وفى أجمل ثياب وأطيب ريح .

وفى الحديث الشريف أن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان من الله وكرامته ، وأن الكافر إذا حضره بشر بعذاب الله وعقوبته ، يؤيد ذلك قول الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين : « ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » وقوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » .

قال المفسرون : تتنزل عليهم الملائكة عند الموت فيطمئنونهم على ما يقدمون عليه من أمور الآخرة ، فيقولون لهم « لا تخافوا » مما هو آت ، ويهونون عليهم ما خلفوه وراءهم من شئون الدنيا ، فيقولون لهم « لاتحزنوا » على ما فات ، ويبشرونهم بالجنات التى وعدهم بها الله .

أما أهل الكفر والظلم والفسوق والفجور فتقبض الملائكة أرواحهم بالضرب على وجوههم وأدبارهم ، ويذيقونهم عذابا فوق ألم النزع ، عذابا حسيا ، وعذابا معنويا ، وتأمل قول الله عز وجل :

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ » .

وقول الله سبحانه وتعالى : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ » .

وقد بيَّنت أحاديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الكيفية التي تقبض عليها روح المؤمن وروح الكافر وعذاب القبر ونعيمه . ومن ذلك الحديث الذى رواه البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجلسنا حوله ، كأن على رءوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه وقال :

استعيذوا بالله من عذاب القبر (قالها مرتين أو ثلاثا) ثم قال :

إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم

الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .

قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى (فم) السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال : فتعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : مادينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت

كتاب الله فآمنت به وصدقت . فينادى مناد من السماء ، أن صدق عبدى ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة .

قال : فيأتيه من رَوْحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مدَّ بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة . قال :

وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع عن الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، سود الوجوه ، معهم المسوح ، فجلسوا منه مدَّ البصر ، ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سخط من الله وغضب .

قال : فتفرق فى جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها طرفة عين ، حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ـ ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » ـ فيقول الله : اكتبوا كتابه فى سجّين فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا ، ثم قرأ : « ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ـ فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فيقولان له : مادينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فيقولان له : ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء : أن كذب عبدى ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيّق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه . ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : ومن أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث ! فيقول : رب لا تقم الساعة .

هذه جملة من الحياة البرزخية ضمها هذا الحديث الشريف .

إن الموت ليس عدما محضا ، فهناك فى القبر حياة برزخية حجبها الله عنا ، فالموت انتقال من دار إلى دار ، ومن حياة إلى حياة ، ولقد أخطأ من قال : كل شىء ينتهى على بعد ستة أقدام تحت الثرى ! !

فإذا ما أذن الله للقيامة أن تقوم ، وجاء يوم البعث والنشور ، أذن الله للملك الموكل بالصور - اسرافيل - عليه السلام - أن ينفخ نفخة الفزع أو الصعق ، ثم نفخة البعث والقيام لرب العالمين ، كما قال الله سبحانه وتعالى فى سورة النمل : « وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ » وفى سورة الزمر : « وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ » .

وحينئذ تتشقق السماوات وتنفطر ، وتنكدر النجوم ، وتتكور الشمس ، ويختل نظام الكون ، وتبدل الأرض غير الأرض ، وقيام الساعة أمر كائن فى علم الله « لا يجليها لوقتها إلا هو » .

ومن علامات الساعة التى وردت بها الآثار ، استعلاء أهل الفسق وظهور أهل المنكر على أهل المعروف . وهذا واضح فى زمننا الذى نعيش فيه .

وذكر القرآن الكريم من أسماء يوم القيامة ومن أوصافه الكثير ، وكل ماعظم تعددت أسماؤه وصفاته ، فمن أسماء القيامة :

الساعة ، لقوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ

غَيْرَ سَاعَةٍ » ومعنى الساعة فى اللغة الوقت الذى أنت فيه ، وسميت القيامة بالساعة لقرب وقوعها .

والواقعة ، لتحقق وقوعها .

والحاقة ، لأن الأمور تحق فيها ، ويتحقق فيها الوعد والوعيد .

والطامة ، لأنها تطمّ أى تغلب على كل أمر مفزع .

والصاخة ، لأنها تصخ السمع أى تصمّه .

والغاشية ، لأنها تغشى الناس وتعمهم .

والخافضة الرافعة ، لأنها تخفض قوما وترفع آخرين .

والقارعة ، لأنها تقرع القلوب بأهوالها ، حتى قالوا : إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء ، وقطرت العظاة دما !

والقيامة هى بداية اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور وحشر وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار ، ومن صفات هذا اليوم وأسمائه غير ما قدمناه أنه :

يوم النفخة ، لقوله تعالى : « يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ » .

يوم الرجفة ، لقوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾

يوم النشور ، ومعنى النشور إحياء الموتى ، وهو البعث .

يوم الخروج ، لأن الناس تخرج فيه من الأحداث ، أى القبور .

يوم الحشر ويوم الجمع ، لأن الخلائق تجمع وتحشر فيه .

يوم العرض ، لقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ » .

يوم التفرق ، لقوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » .

يوم الصدر ، لقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ » .

يوم الصدع ، لقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ » .

يوم الفزع ، لقوله تعالى عن المؤمنين : « لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ » .

يوم التناد ، بتخفيف الدال من النداء ، وبتشديدها من ندَّ يعنى ذهب ، قال تعالى : « وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » .

يوم الشهادة ، لقوله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » .

يوم الوعد والوعيد ، لأن الله وعد المؤمنين بالجنة ، وتوعد الكافرين بالنار .

يوم الدين ، والدين فى اللغة الجزاء .

يوم الجزاء ، لقوله تعالى : « ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ » .

يوم الحسرة والندامة ، لقوله تعالى : « وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ » .

يوم التبديل ، لقوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ » .

يوم التلاق ، لقوله تعالى : « لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ » وسمى بذلك لأنه تتلاقى فيه الأموات ، أو يتلاقى فيه أهل السموات بأهل الأرض ، أو يتلاقى فيه الخلق بالبارى سبحانه .

يوم الآزفة ، لقوله تعالى : «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ» ومعنى أزف قُرب .

يوم المآب ، والمآب الرجوع ، الرجوع إلى الله .

يوم المصير ، لقوله تعالى : « وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ » .

يوم الفصل والقضاء ، لقوله تعالى : «يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ» .

يوم الوزن ، لأن الأعمال توزن فيه ، قال تعالى : « وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ » .

يوم التغابن ، لأن الناس يتغابنون فى المنازل عند الله .

يوم الفرار ، لقوله تعالى : « يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ » .

يوم الجدال ، لقوله تعالى : «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا» . والقرآن الكريم زاخر بأوصاف هذا اليوم ، فهو يوم عظيم ، ويوم عقيم ، ويوم عسير ، ويوم مشهود ، ويوم عبوس قمطرير .

«يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» .

«يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ» .

«يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ» .

«يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾» .

وفى هذا اليوم يحشر الله الأمم من الإنس والجن حفاة عراة أذلاء ، قد نزع الملك من ملوك الأرض ، ولزمهم الصغار بعد عتوّهم ، والذلة بعد تكبرهم .

ويخوض الناس فى العرق والزحام ، فمنهم من يبلغ العرق ذقنه ، ومنهم من يبلغ إلى صدره ، أو حقويه أو ركبتيه ، وكيف لا يكون العرق والقلق والأرق ، وقد قربت الشمس من الرءوس وضوعف حرها سبعين مرة .

والناس فى هذا اليوم ليست حالهم حالا واحدة ، ولا موقفهم موقفا واحدا ، ولكن لهم مواقف وأحوال ، يقول الإمام القرطبى :

واختلفت الأخبار عنهم لاختلاف مواقفهم وأحوالهم ، وجملة ذلك خمسة أحوال :

حال البعث من القبور ، وحال السَّوْق إلى موقف القضاء ، وحال المحاسبة ، وحال السَّوْق إلى دار الجزاء ، وحال مقامهم فى الدار التى يستقرون فيها .

فأما حال البعث من القبور ، فإن الكفار يكونون كاملى الحواس والجوارح ، لقوله تعالى : « يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ » وقوله : « يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا » وقوله : « فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ » وقوله : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ » الثانية ، حالة السَّوْق إلى موضع الحساب ، وهم أيضا فى هذه الحال بحواسّ تامة ، لقوله عز وجل : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ » .

والثالثة ، حالة المحاسبة ، وهم يكونون فيها أيضا كاملى الحواسّ ، ليسمعوا ما يقال لهم ، ويقرأوا كتبهم الناطقة بأعمالهم ،

وتشهد عليهم جوارحهم بسيئاتهم فيسمعونها ، وقد أخبر الله عنهم أنهم يقولون : « مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا » وأنهم يقولون لجلودهم « لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا » ؟ وليشاهدوا أحوال القيامة ، وما كانوا مكذبين فى الدنيا به ، من شدّتها وتصرّف الأحوال بالناس فيها .

وأما الرابعة ، وهى السَّوْق إلى جهنم ، فإنهم يسلبون فيها أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم ، لقوله تعالى : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ » .

والحال الخامسة حال الإقامة فى النار ، وهى تنقسم إلى بدوّ ومآل ، فبدوّها أنهم إذا قطعوا المسافة التى بين موقف الحساب وشفير جهنم عميا وصما وبكما إذلالاً لهم وتمييزا لهم عن غيرهم ، ثم رُدَّت الحواسّ إليهم ليشاهدوا النار ، وما أُعِدَّ لهم فيها من العذاب ، ويعاينوا ملائكة العذاب ، وكل ما كانوا به مكذبين ، فيستقرون فى النار ناطقين سامعين مبصرين ، ولهذا قال الله تعالى : « وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ » وقال : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » وقال : « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا

ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ » وقال : « كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ » .

وأخبر الله تعالى أنهم ينادون أهل الجنة فيقولون : « أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ » وأن أهل الجنة ينادونهم : « أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ » وأنهم يقولون : « يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » فيقول لهم : « إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ » وأنهم يقولون لخزنة جهنم : « ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ » فيقولون لهم : « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ » .

أما العقبى والمآل فإنهم إذا قالوا : « أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ » يقول الله لهم : « ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » .

وبعد أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يعلن الحق

سبحانه وتعالى نهاية الموت ، وينادى : يأأهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت .

والبشريات فى هذا اليوم ، كل البشريات للمؤمنين ، ولا بشرى يومئذ للمجرمين ، « إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ » « تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ » « إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ » .

ذلك وعد الله ، والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ » .

« رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ » .

ـ تم بحمد الله ـ

سوهاج فى يوم الخميس

١٧ من المحرم سنة ١٤٠٨ هـ

١٠ من سبتمبر سنة ١٩٨٧ م

الفهرس

رقم الايداع ٤٦٢٩ ١٩٨٨١
الترقيم الدولى ٥-٢٥٠ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤ - برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

الغلاف للفنان حلمى التونى



الكلمات الأخيرة

هذا الكتاب يدور الحديث فيه عن
طائفة من رجال الإسلام لا ليترجم لهم ،
وإنما ليتحدث عن نهاياتهم ، وهي نهاية
كل حيّ في هذه الحياة.

وقد رصد المؤلف كلماتهم الأخيرة
وهم يواجهون الموت في أصدق لحظات
الصدق مع النفس ، فلا نملك إلا أن
نفكر ونتأمل فيما قالوه عند موتهم

وقد التقت خطوط هذا الكتاب في
خط واحد أخير ختم به المؤلف كتابه ،
وتحدث فيه عن الموت وما وراء الموت
وفي هذا ذكرى لمن يتذكر.
وعبرة لمن يعتبر ويتدبر

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣